المبحث الثاني:

وجوب الإيمان بالرسل وموجز تاريخ الرسل

أولاً: وجوب الإيمان بالرسل:

من المسلَّمات البدهية في الإسلام التي اعتبرها ركناً أساسياً من أركان الإيمان والعقيدة: الإيمان بالنبوة والوحي، والتصديق برسالات الله وبرسله إلى خلقه، الذين بعثهم مبشرين ومنذرين، لكي لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، فلا يصح إيمان مؤمن، ولا يدخل في دين الله، ولا يقبل في جماعة المؤمنين، ما لم يؤمن بكل كتاب أنزل، وبكل نبي أرسل.

وهذا أمر في غاية الوضوح في كتاب الله وسنة رسوله، لا يرتاب فيه مسلم، ولا يتردد فيه عقل، ولا يتلجلج به لسان.

يقول تعالى مبيناً حقيقة البر وأركان الإيمان، رداً على اليهود الذين أثاروا ضجة حول تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة[1]:

- قال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة: 177].

- وقال سبحانه: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: 285].

---

(1) من هدي الإسلام، فتاوى معاصرة، يوسف القرضاوي (3/ 167).

فذكر الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله صراحة، وأشار إلى الإيمان باليوم الآخر بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: 136].

- وقال تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ﴾ [الحديد: 21].

- وقال تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 84].

- وقال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 136].

- وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر: 78].

- وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: 24].

- وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ

بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: 47].

وفي السنة حديث جبريل المشهور، عندما سأله عن الإيمان قال: الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر[1].

وإنما لم يذكر القرآن الكريم الإيمان بالقدر، لأنه من جملة الإيمان بالله تعالى فهو إيمان بمقتضى الكمال الإلٰهي وأنه علم كل شيء وأراده قبل أن يقع، قال تعالى: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: 59].

المهم أن الإيمان بالرسل لا ريب فيه ولا خلاف عليه، ولهذا ورد أن الناس يوم القيامة يُسألون سؤالين رئيسين:

أولهما: ماذا كنتم تعبدون؟

والثاني: بماذا أجبتم المرسلين؟

ويقول تعالى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [القصص: 66].

ولقد ردّ القرآن على المكذبين، الذين استبعدوا أن يرسل الله إليهم رسولاً يبشرهم وينذرهم ويهديهم إلى صراط مستقيم، وقال عز وجل على لسان نوح عليه السلام: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: 63].

---

(1) مسلم، كتاب الإيمان، باب الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله (8).

المهم أن الإيمان برسل الله جميعاً، عقيدة إسلامية أساسية ومن كذّب رسولاً واحداً من رسل الله حقاً فكأنما كذب المرسلين جميعاً، وهذا ما يقرّره القرآن حينما قال في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: 105]. وهم لم يكذبوا إلا نوحاً. وفي قوله: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: 123]. وهم لم يكذبوا إلا هوداً وفي قوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: 141]. وهم لم يكذبوا إلا صالحاً وكذلك قال عن قوم لوط وقوم شعيب، وإنما نسب إليهم تكذيب المرسلين لأنهم كذبوا واحداً منهم، فكأنهم جحدوا مبدأ الرسالة نفسه، فمن زعم أنه آمن بالله تعالى ولكنه كذب رسله أو واحداً منهم ممن ثبتت رسالته، فهو كاذب في دعوى الإيمان، إذ الإيمان الحق: ما جاء على لسان الرسول الصادق المؤيد بالآيات، ومن قال: أؤمن بواحد أو بمجموعة ولا أؤمن بغيره ممن هو مثلهم أو أعلى منهم، فهو كاذب في دعوى إيمانه، بل القرآن يقول عن مثله إنه الكافر حقاً[1].

اقرأ معي قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾ [النساء: 150 - 151].

وهاتان الآيتان نزلتا في شأن اليهود والنصارى، فاليهود آمنوا بموسى وكفروا بعيسى ومحمد، والنصارى آمنوا بموسى وعيسى وكفروا بمحمد، والمسلمون وحدهم هم الذين آمنوا بالجميع وبكل

(1) فتاوى معاصرة (3/ 169).

نبي أرسله الله، وبكل كتاب أنزله الله، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: 152][1].

لقد جاء الرسل كلهم بقضية واحدة وكلمة واحدة، جاؤوا يبينون أنه لا إلٰه في هذا الوجود كله إلا إلٰه واحد هو الله سبحانه وتعالى بلا شريك، وجاؤوا يقولون للناس: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [هود: 50: 61: 84].

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25][2].

لقد منح القرآن الكريم مسألة الإيمان بالأنبياء والرسل أهمية كبيرة تتناسب مع عظمتها وخطورة شأنها، إن الله تعالى أمر العباد بتحقيق العبادة الشاملة، والعبادة هي امتثال الأمر والنهي وهذا يقضي أن لله أوامر ونواهي، فكيف يتعرف الإنسان على هذه الأوامر والنواهي؟ إنه لا طريق للتلقي من الله إلا بواسطة الرسل عليهم الصلاة والسلام، وعلى هذا فإن الذي لا يؤمن بالرسل لا يمكن أن يكون موحداً لله، ومن هذا ندرك لماذا اهتم القرآن بهذه القضية ونلاحظ أن مظاهر هذا الاهتمام في النماذج التالية:

1 - كثرة النصوص القرآنية التي جاءت مفصلة ومبينة ومؤكدة لهذه القضية، ويكفي أن نعلم أن كلمة «الرسول» وحدها تكررت في

---

(1) فتاوى معاصرة (3/ 169).

(2) ركائز الإيمان، محمد قطب، ص: 227.

القرآن الكريم بنحو «363» مرة، وكلمة «النبي» بنحو «75» مرة، وأما الحديث عنهم عليهم الصلاة والسلام وما جرى لهم فهذا أخذ حيزاً كبيراً من القرآن الكريم.

2 - اقتران الإيمان بهم بالإيمان بالله في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، سواء أكان هذا في النبوة العامة أم الخاصة.

أ - فأما في النبوة العامة، فمثلاً، قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة: 177].

ب - وأما في النبوة الخاصة، قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ﴾ [الأعراف: 158].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النور: 62].

3 - التحذير من تكذيبهم وتخويف المكذبين بما لاقى أسلافهم ويكفي أن تمر على هذه الآيات[1].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾﴾ [الإسراء: 101-103].

---

(1) المحكم في العقيدة، د. محمد عياش، ص: 123 - 124.

ثانياً: موجز تاريخ الرسل الكرام:

تاريخ الأنبياء تاريخ العظمة والجلال، وحياتهم حياة الكفاح والنضال والجهاد ضد أعداء الحق وأعداء الله، وأعداء الإنسانية في كل زمان وحين وليس الغرض من ذكر القصص في القرآن التسلية أو الترفيه عن النفس وإنما الغرض العظة والعبرة، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: 111].

كما أشارت الآية الأخرى إلى ضرورة الاستفادة من قصص القرآن بالتفكر والتدبر، والسير على منهاج الأنبياء والمرسلين: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 176].

وخاصة بالنسبة إلى مقام الدعاة، فإن الغرض من ذكر قصص الأنبياء لهم تثبيتهم على الدعوة وتقوية عزائمهم باطلاعهم على سيرة الأنبياء الأطهار وما تحملوه من أذى في سبيل الله[1]، كما قال تعالى لسيد الخلق محمد ﷺ: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: 120].

1 - من أغراض قصص الأنبياء في القرآن الكريم:

للقرآن الكريم في ذكر قصص الأنبياء أغراض عديدة وجليلة:

أ - إثبات الوحي والرسالة: بيَّن القرآن الكريم أن هذا القصص إنما هو بوحي الله، فمحمد ﷺ أمي لا يكتب ولا يقرأ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: 48].

(1) عقيدة التوحيد من الكتاب والسنة، سعاد ميبر، ص: 300.

ولم ينقل عن الرسول ﷺ، أنه كان يجلس إلى أحبار اليهود، أو رهبان النصارى، فمن أين جاء بهذا القصص الرائع عن الأنبياء قبله، وعن الأمم والخلائق، وما وقع لهم وما حلّ بهم، وبعض القصص جاء في دقة وإسهاب، كقصص إبراهيم، ويوسف، وموسى وعيسى عليهم السلام.

إن مجيء القصص بهذه الدقة المتناهية وورودها في القرآن بهذا البيان المحكم، أعظم دليل على أنه وحي يوحى من عند الحكيم الخبير، وقد أشارت كثير من الآيات القرآنية إلى هذا الغرض إشارة واضحة جليلة في مقدمات بعض القصص أو في أواخرها، مثل قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: 3].

وقال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: 49][1].

ب - **تثبيت النبي ﷺ في دعوته**: ببيان أن النصر في النهاية للرسل الكرام وأن الهلاك والدمار للأمم المكذبين، وفي ذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: 34].

ويقول سبحانه أيضاً داعياً رسوله ﷺ إلى تدبر ذلك الجزاء

(1) عقيدة التوحيد من الكتاب والسنة، سعاد ميبر، ص: 301.

العادل الذي أخذ به القوم المجرمين، قال تعالى: ﴿وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَـٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: 39 - 40].

ج - دفع الناس إلى الإيمان بخاتمة الرسالات: لقد أكثر القرآن العظيم من ذكر دعوات الأنبياء السابقين وموقف الناس منها طائعين وعصاة وعاقبة كل منهم، وذلك يقصد خلق تأثير نفسي لدى المطلع على ذلك، يجعله يؤمن بالدعوة المعروضة عليه لأن المسألة من خلال ما سمع أو قرأ قد وضحت وبانت، فمن آمن نجا، ومن كفر هلك، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: 109].

د - إظهار الترابط الوثيق بين الرسالات السماوية: فكل نبي إنما يأتي برسالة متممة ومكملة لرسالة النبي الذي سبقه، ويدعو إلى الإيمان برسالته، وقد أخذ الله ﷻ العهد والميثاق على جميع الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ ويتبعوه ويكونوا من أنصاره إن أدركوا حياته وعهده[1]، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟

(1) عقيدة التوحيد، سعاد ميبر ص: 301.

وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: 81].

2 - الرسل والأنبياء الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم:

وهم خمسة وعشرون رسولاً، أولهم آدم عليه السلام، وآخرهم محمد ﷺ وقد جمع هؤلاء الرسل في آيات كريمة من سورة الأنعام، ذكر منهم فيها ثمانية عشر، والسبعة الباقون ذكروا في آيات متفرقة من كتاب الله تعالى، أما الآية الكريمة فهي قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام: 83-86].

وقد جمع بقية الرسل في الآيات الكريمة التالية:

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: 56].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ﴾ [هود: 50]

وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ﴾ [هود: 61].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ﴾ [هود: 84].

وقال جل وعلا: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنبياء: 85].

وقـــال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: 33][1].

وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: 29].

وهؤلاء من ذكرهم الله في القرآن الكريم وهناك من لم يذكرهم ولا نعرف عددهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: 78].

وقد أخبرنا رسول الله ﷺ بعدة الأنبياء والمرسلين، فعن أبي ذر، قال: قلت: يا رسول الله، كم المرسلون؟ قال: «**ثلاثمائة وبضعة عشر جماً غفيرًا**»، وفي رواية أبي أمامة، قال أبو ذر قلت: يا رسول الله، كم وفاء عدة الأنبياء؟ قال: «**مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جماً غفيرًا**»[2].

ثالثاً: جوهر الرسالات كلها:

إن الدين الإسلامي هو الدين الذي ارتضاه الله لعباده المؤمنين الموحدين، فهو دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وبعث به كل الرسل ليُبلغوه للناس ودعا له الرسل ونشروه في أرجاء المعمورة، فهو أصل رسالتهم الذي اتحدوا عليه، وانطلقوا منه، فكان هو دينهم جميعاً، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمرن: 19].

---

(1) عقيدة التوحيد من الكتاب والسنة، ص: 33.

(2) مشكاة المصابيح (3/ 122) وقال محقق المشكاة الشيخ ناصر الدين الألباني: إسناده صحيح.

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: 85].

فالإسلام دين جميع الأنبياء والمرسلين، وإن اختلفت شرائعهم وأحكامهم، فإنهم متفقون على الأصل الأول وهو التوحيد والإسلام، فمثلاً:

- أخبر الله عن نوح عليه السلام: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: 72].

- وأخبر عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: 131].

- وأخبر عن موسى عليه السلام قوله: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: 84].

- وأخبر عن حواريي المسيح: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: 111].

- وأخبر عن سليمان عليه السلام على لسان ملكة سبأ: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: 44].

- وأخبر تعالى عن الأنبياء الذين تقدموا: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [المائدة: 44][1].

إن أصل الدين واحد، بعث الله به جميع الأنبياء والمرسلين، واتفقت دعوتهم إليه، وتوحّدت سبيلهم عليه، وإنما التعدد في

(1) العقيدة الصافية للفرقة الناجية، ص: 119، 120.

شرائعهم المتفرعة عنه، وجعلهم الله ـ سبحانه ـ وسائط بينه وبين عباده في تعريفهم بذلك ودلالتهم عليه لمعرفة ما ينفعهم وما يضرهم، وتكميل ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم.

بُعثوا جميعاً بالدين الجامع الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له، بالدعوة إلى توحيد الله والاستمساك بحبله المتين.

وبُعثوا بالتعريف في الطريق الموصل إليه.

وبُعثوا ببيان حالهم بعد الوصول إليه.

فاتحدت دعوتهم إلى هذه الأصول الثلاثة:

1 - الدعوة إلى الله تعالى في إثبات التوحيد وتقريره، وعبادة الله وحده لا شريك له، وترك عبادة ما سواه، فالتوحيد دين العالم بأسره من آدم إلى آخر نفس منفوسة من هذه الأمة.

2 - والتعريف بالطريق الموصل إليه ـ سبحانه ـ في إثبات النبوات وما يتفرع عنها من الشرائع، من صلاة وزكاة وصيام وجهاد وغيرها، أمراً ونهياً في دائرة أحكام التكليف الخمسة: الأمر وجوباً، أو استحباباً والنهي تحريماً، أو كراهة، والإباحة، وإقامة العدل والفضائل، والترغيب والترهيب.

3 - والتعريف بحال الخليقة بعد الوصول إلى الله: في إثبات المعاد والإيمان باليوم الآخر، والموت، وما بعده من القبر، ونعيمه وعذابه، والبعث بعد الموت والجنة والنار، والثواب والعقاب.

وعلى هذه الأصول الثلاثة مدار الخلق والأمر، وبُعث به جميع

الأنبياء والرسل، وتلك هي الوحدة الكبرى بين الرسل والرسالات والأمم.

وهذا هو المقصود من قول النبي ﷺ: «**إن معاشر الأنبياء أخوة لعلّات أمهاتهم شتى ودينهم واحد**»، وهو المقصود في مثل قول الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: 13]. وهذه الأصول الكلية هي ما تضمنته عامة السور المكية من القرآن الكريم.

وإذا تأملت سرّ إيجاد الله لخلقه، وهو عبادته، كما في قول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56].

عرفت ضرورة توحد الملة والدين، ووحدة الصراط، ولهذا جاء في أم القرآن فاتحة كتاب الله عز وجل: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: 6-7]، ثم أتبع ذلك بأن اليهود والنصارى، خارجون عن هذا الصراط فقال: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

وبهذا تدرك الحكم العظيمة مما قصه الله ـ تعالى ـ علينا في القرآن العظيم من قصص الأنبياء وأخبارهم مع أممهم لأخذ العبرة، والتفكر وتثبيت أفئدة الأنبياء، وإثبات النبوة والرسالة وجعلها موعظة للمؤمنين وأخبار الأمم المكذبة لرسلهم وما صارت إليه عاقبتهم وأنها سننه ـ سبحانه ـ فيمن أعرض عن سبيله.

والدين بهذا الاعتبار هو «دين الإسلام» بمعناه العام، وهو:

إسلام الوجه لله وطاعته، وعبادته وحده، والبراءة من الشرك، والإيمان بالنبوات، والمبدأ والمعاد[1].

ولوحدة الدين بهذا الاعتبار في دعوة جميع الأنبياء والمرسلين وحّد ـ سبحانه ـ «الصراط» و«السبيل» في جميع آيات القرآن الكريم، وهذا الدين «دين الإسلام» بهذا أي باعتبار: وحدته العامة وتوحد صراطه وسبيله، هو الذي ذكره الله في آيات من كتابه عن أنبيائه: نوح، وإبراهيم، وبنيه، ويوسف الصديق، وموسى، ودعوة نبي الله سليمان، وجواب بلقيس ملكة سبأ، وعن الحواريين، وعن سحرة فرعون، وعن فرعون حين أدركه الغرق.

ودين الإسلام بهذا الاعتبار: هو دين جميع الأنبياء والمرسلين وملتهم، بل إن إسلام كل نبي ورسول يكون سابقاً لأمته، وهو محل بعثته إلى أمته، وما يتبع ذلك من شريعته، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: 36].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25].

وإنما خص الله ـ سبحانه ـ نبيه إبراهيم عليه السلام بأن: «دين الإسلام» بهذا الاعتبار العام هو ملته في مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [آل عمران: 95]. **لوجوه:**

(1) الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان، بكر عبد الله أبو زيد، ص: 50 – 51.

1 - أنه عليه السلام واجه في تحقيق التوحيد وتحطيم الشرك، ونصر الله له بذلك ما قص الله خبره، أمراً عظيماً.

2 - أن الله تعالى جعل في ذريته النبوة والكتاب ولذا قيل له: «أبو الأنبياء» ولذا قال الله تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ﴾ [الحج: 78].

وهو عليه السلام تمام ثمانية عشر نبياً سماهم الله في كتابه من ذريته وهم: ابنه إسماعيل (ومن ذريته: محمد عليه الصلاة والسلام) وابنه إسحاق ومن ذريته: يعقوب بن إسحاق، ويوسف، وأيوب، وذو الكفل، وموسى، وهارون، وإلياس، واليسع، ويونس، وداود، وسليمان، وزكريا، ويحيى، وعيسى عليهم السلام.

3 - لإبطال مزاعم اليهود والنصارى في دعواهم أنهم على ملة إبراهيم عليه السلام فقد كذبهم الله ـ تعالى ـ في قوله: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 140][1].

وردّ الله عليهم محاجتهم في ذلك بقوله: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ حَـٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران: 65-67].

(1) اللبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان، ص: 53.

- ثم بين سبحانه ـ أن أولى الناس بإبراهيم هم الذين على ملته وسنته فقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 68].

- وبيّن سبحانه ـ مدى الضلال البعيد في جُنوح أهل الكتاب إلى هذه الدعوى، وما هم فيه من الغلو والضلال، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: 77].

- وبيّن سبحانه ـ أن هذه المحاولة الكاذبة البائسة من أهل الكتاب جارية في محاولاتهم مع المسلمين، لإضلالهم عن دينهم ولبس الحق بالباطل، فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ [البقرة: 135-137].

وهكذا يجد المتأمل في كتاب الله ـ تعالى ـ التنبيه في كثير من الآيات إلى أن هذا القرآن ما أنزل إلا ليُجدد دين إبراهيم حتى دعاهم بالتسمية التي يكرهها اليهود والنصارى، «ملة إبراهيم» فاقرأ قول الله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا

جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحج: 78].

والخلاصة:

أن لفظ: «الإسلام» له معنيان، معنى عام: يتناول إسلام كل أمة متبعة لنبي من أنبياء الله الذي بعث فيهم فيكونون مسلمين، حنفاء على ملة إبراهيم بعبادتهم لله وحده واتباعهم لشريعة من بعثه الله فيهم، فأهل التوراة قبل النسخ والتبديل، مسلمون حنفاء على ملة إبراهيم، فهم على «دين الإسلام»، ثم لمّا بعث الله نبيه عيسى عليه السلام كان على الإسلام، ثم لمّا بعث الله محمداً ﷺ وهو خاتمهم، وشريعته خاتمة الشرائع ورسالته خاتمة الرسالات، وهي عامة لأهل الأرض وجب على أهل الكتابيين وغيرهم، اتباع شريعته، وما بعثه الله به لا غير، فمن لم يتبعه فهو كافر لا يوصف بالإسلام ولا أنه حنيف، ولا أنه على ملة إبراهيم، ولا ينفعه ما يتمسك به من يهودية، أو نصرانية، ولا يقبله الله منه، فبقي اسم «الإسلام» عند الإطلاق منذ بعثة محمد ﷺ حتى يرث الله الأرض ومن عليها، مختصاً بمن يتبعه لا غير. وهذا هو معناه الخاص الذي لا يجوز إطلاقه على دين سواه، فكيف وما سواه دائر بين التبديل والنسخ فإذا قال أهل الكتاب للمسلمين: ﴿كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾، فقد أمر الله المسلمين أن يقولوا لهم: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ﴾ ولا يوصف أحد اليوم بأنه مسلم، ولا أنه على ملة إبراهيم حنيفاً، ولا أنه من عباد الله الحنفاء إلا إذا كان متبعاً لما بعث الله به خاتم أنبيائه ورسله محمداً ﷺ.

وأما تنوع الشرائع وتعدُّدُها: فيقول الله ـ تعالى ـ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: 48].

- **شرعه**: أي شريعة وسنة، قال بعض العلماء: سميت الشريعة شريعة، تشبيهاً بشريعة الماء، من حيث أن من شرع فيها على الحقيقة المصدوقة روي وتطهر[1].

- **ومنهاجاً**: أي طريقاً وسبيلاً واضحاً إلى الحق، ليعمل به في الأحكام، والأوامر والنواهي، ليعلم الله من يُطيعه ممّن يعصيه.

ويقول ـ سبحانه ـ: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: 67].

منسكاً: متعبداً.

هم ناسكوه: متعبدون به.

- وقال تعالى في حق نبيه ورسوله محمد ﷺ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾ [الجاثية: 18].

وقد علمنا الأصول التي تساوت فيها الملل، وتواطأت دعوة أنبياء الله ورسله إليها: إلى دين واحد وملة واحدة في تقرير العبودية لله ـ سبحانه ـ لا شريك له، وتوحيده وتقرير النبوة والمعاد ووحدة التشريع من عند الله ـ تعالى ـ فهذه لا تتغير ولا تتبدل ولا يدخلها نسخ فهي محكمة غير منسوخة ولا تقبل الاجتهاد ولا التخصيص.

---

(1) الإبطال، ص: 57.

أما الشرائع، فهي مختلفة، متنوعة، ومتعددة، ويعترضها النسخ، فكل شريعة رسول تخالف الأخرى في كل أو بعض أمور التشريع، فهناك حكم تعبدي في شريعة رسول ينتهي بانتهاء شريعته ببعثة رسول آخر، وهناك حكم يغير في بعض جزيئاته في وقته أو كيفيته، أو مقداره أو حكمه من التشديد إلى التخفيف وبعكسه.

وهناك حكم يكون في شريعة لاحقة دون السابقة أو عكسه[1].

وهكذا من تنوع التشريع في الأحكام العملية والقولية، من الأوامر والنواهي حسب سابق علم الله - تعالى - وحكمته في تشريعه وأمره، بأوضاع كل أمة، وأزمانها وأحوالها وطبائعها من قوتها وضعفها، وحسب أبدية التشريع، أو تغييره ونسخه وهذا يكاد ينتظم أبواب التشريع في العبادات والمعاملات والنكاح، والجنايات والحدود، والإيمان والنذور والقضاء وغير ذلك من الفروع التي ترجع إلى وحدة الدين والملة، ولذا فإن شريعة الإسلام وهي آخر الشرائع باينت جميع الشرائع في عامة الأحكام العملية والقولية، والأوامر والنواهي لما لها من صفة الدوام والبقاء، وأنها آخر شريعة نزلت من عند الله ناسخة لما قبلها من شرائع الأنبياء[2].

رابعاً: حقيقة النبوة:

النبوة والرسالة اصطفاء خالص من عند الله يختص به من يشاء من عباده وليست شيئاً يكتسبه العباد من ذات أنفسهم بعمل يعملونه

(1) الإبطال، ص: 58.

(2) الإبطال، ص: 59.

من جانبهم وكل ما يقع للبشر في حياتهم هو من عند الله، وكل موهبة توهب لهم في ذات أنفسهم أو فيما بين أيديهم هي من عند الله، ولكن الله قدّر أن يكون للإنسان جانب من الكسب في كل ذلك، فقد أعطى الإنسان القدرة على المعرفة ووهب له ذكاء يتفاوت من شخص إلى شخص، ومنحه طاقة مختلفة، ثم كلفه أن يعمل، وأن يبذل جهداً معيناً لتحصيل المعرفة، واستخدام الذكاء في عمارة الأرض وغيرها من شؤون الحياة.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: 15].

وقال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: 61].

وقال تعالى: ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: 4 - 5].

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: 78].

ويستطيع الإنسان بتحصيله الشخصي أن ينمي ما وهب الله له من مواهب فيستطيع مثلاً أن ينمي قوته الجسدية بالرياضة البدنية والتدريب فيصبح قوي الجسم، متين العضلات، ويستطيع أن ينمي قوته الذهنية بالتدريبات العقلية وتعلم العلم وإمعان الفكر، فيستنبط ويكتشف ويخترع ويدبر ويخطط، ويستطيع أن ينمي قوته الروحية بالامتناع عن بعض لذائذ الحس، وبالتأمل وبإبعاد النفس شيئاً من الوقت عن عالم الحس القريب بصورة من الصور، فتصفو روحه، ويكتسب طاقة روحية كبيرة، كل هذه الأعمال هي في أصلها موهبة

من الله، وهي فيما تنتهي إليه كسب يكسبه البشر بجهد يبذلونه وتحصيل يكدون فيه ويكدحون.

أما الرسالة والنبوة فموهبة من الله ذات طبيعة مختلفة، إنه لا يد للإنسان فيها ولا كسب ولا اختيار، إنما هي اصطفاء خالص من جانب الله ﷻ لعبد من عباده يجتبيه وينعم عليه ويبعثه بالهداية إلى الناس[1].

- قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ [الحج: 75].

وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ﴾ [مريم: 58].

وقال سبحانه في إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [البقرة: 130].

وقال لموسى عليه السلام: ﴿ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: 144].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: 33].

وقال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه: 13].

وحقيقة إن الذين يصطفيهم الله ليكونوا رسلاً وأنبياء هم خيار

(1) ركائز الإيمان، ص: 229.

الناس وأفضلهم، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [صٓ: 47].

ولكن نحن لا نستطيع - بمقياسنا - أن نقول: إن فلاناً من البشر يستحق النبوة أو إنه أولى بها من غيره، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: 124].

فالنبوة إذاً محض اختيار من الله واصطفاء واجتباء، ولذلك رد الله زعم المشركين أن النبوة لا تليق إلا برجل عظيم من الأثرياء حين قالوا ـ فيما حكاه الله عنهم ـ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: 31].

رد عليهم سبحانه قائلاً: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الزخرف: 32].

أي: ليس الأمر مردوداً إليهم بل إلى الله عَزَّوَجَلَّ ، والله أعلم حيث يجعل رسالته، فإنه لا ينزلها إلا على أزكى الخلق قلباً ونفساً وأشرفهم بيتاً وأطهرهم أصلاً، فبين سبحانه في رده زعمهم: أن النبوة رحمة منه يخص بها من يشاء من عباده، وأنها منزلة رفيعة يرفع الله بها عبده فوق خلقه درجات، ثم إن النبوة قد انقطعت بعد محمد ﷺ فلا نبي بعده البتة، قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: 4].

وقال ﷺ «**أنا خاتم النبيين**»[1]، وقال ﷺ: «**إنه لا نبي بعدي**»[2]. وفي الجملة فإن كونه ﷺ خاتم النبيين وأنه لا نبي بعده ثابت بالتواتر من أحاديث رسول الله ﷺ[3]. كما هو ثابت بالقرآن أيضاً، فلا مطمع لأحد في هذه المنزلة بعده ﷺ، ولم يبلغها من البشر إلا هو ومن تقدمه من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم فلا يبلغها غيرهم إلى قيام الساعة[4].

ويأتي الحديث عن انقطاع النبوة بعد محمد ﷺ لاحقاً بإذن الله تعالى.

خامساً: حاجة البشر إلى الرسل:

لم يستطع العقل البشري مرة واحدة أن يضع منهجاً متكاملاً خالياً من العيوب، وكلما أبرز التطبيق العملي عيباً في تلك المناهج البشرية حاول البشر إصلاحه بعيب جديد تظهر نتائجه المنحرفة بعد حين من الزمان ذلك أن وضع المنهج الصالح لحياة البشر يحتاج إلى جملة أمور يقصر عنها العلم البشري.

1 - يحتاج إلى معرفة حقيقية كاملة بالكيان البشري ذاته والإنسان ـ على الرغم من كل العلم المادي الذي عرفه ـ مايزال

(1) البخاري مع الفتح (6/ 58)، تفسير ابن كثير (4/ 128).

(2) البخاري مع الفتح (6/ 495).

(3) مباحث في المفاضلة في العقيدة، محمد الشليفي، ص: 176.

(4) المصدر نفسه، ص: 176.

شديد الجهل بكيانه الذاتي، وهو بالتالي شديد الجهل بما يصلحه وما يصلح له.

2 - يحتاج إلى إحاطة كاملة بماضي الجنس البشري وحاضره ومستقبله والتجارب التي خاضها وأسبابها ونتائجها، وهذا يستحيل استحالة كاملة على الإنسان لأن كثيراً من أحداث الماضي مجهول له، وهو عاجز عن الإحاطة بكل أحداث الحاضر الذي يعيشه، أما المستقبل فهو غيب موصد أمامه لا يستطيع الاطلاع عليه.

3 - ثم إنه يحتاج إلى أن يكون واضح المنهج غير متحيز لا مصلحة له في أمر من الأمور، ولا هوى ولا شهوات وهذا أمر لا يتوفر أصلاً في الإنسان، الذي ينجذب دائماً إلى مصلحته الذاتية وتحركه دائماً الأهواء والشهوات ما لم يلتزم بأمر الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ [المعارج: 19 - 22].

4 - ويحتاج واضع المنهج إلى علم كامل بمن يطيعه في السر والعلن، وإلى قدرة تامة على مجازاة من يطيع، ومعاقبة من يعصي حتى يكون المنهج محترماً ومطبقاً وهذه الأوصاف لا تتوفر في الجنس البشري، فالإنسان لا يرى إلا في حدود ما تبصر عيناه، ولا يسمع إلا في حدود ما يبلغ سمعه.

أما الله عَزَّوَجَلَّ فإنه يعلم جميع ما يفعله الإنسان من خير وشر، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ

ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: 7].

والله عَزَّوَجَلَّ قادر على أن يجازي من أطاعه ويعاقب من عصاه على الدقيق والجليل، قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزلزلة: 7 - 8].

ومن ثم فإن المنهج الصالح لا يمكن أن يأتي إلا من مصدر واحد هو الله تعالى.

فالله هو الذي يعلم حقيقة الإنسان لأنه هو الذي خلقه سبحانه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: 14](1).

والله هو الذي يعلم كل شيء في حياة البشر وفي الكون كله، علم إحاطة واطلاع: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ [سبأ: 2].

وقال تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: 3].

والله هو الذي شرع التشريع الحكيم لأنه هو الغني القادر، وليس محتاجاً إلى شيء مما عند الناس وهو الواهب لهم كل شيء، وهو الذي لا يزيد في ملكه أن يكون الناس كلهم على أتقى رجل منهم، ولا ينقص في ملكه على أن يكونوا على قلب أفجر رجل

(1) ركائز الإيمان، ص: - 244.

منهم كما يقول الحديث القدسي.

والهداية الربانية التي تشمل على المنهج الصالح لحياة البشر طريقها هو الرسل والرسالات ومن ثم تصبح الرسالة حاجة بشرية لا غنى عنها، ولا استقامة لحياة البشر بدونها كما تكفل الله ﷻ ـ رحمة منه بعباده ـ بكل ما يحفظ حياتهم من الطعام والكساء والمأوى والعقل المدبر المنظم، فقد تكفل ـ سبحانه ـ كذلك بإرسال الرسل وإنزال الكتب لتستقيم حياة الناس في الأرض، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: 25][1].

فحاجة البشر إلى رسالة الرسل: ضرورة للعباد، لابد لهم منها، وحاجتهم إليهما فوق حاجتهم إلى كل شيء، والرسالة روح العالم ونوره وحياته، فأي صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور؟ والدنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة وكذلك العبد مالم تشرق في قلبه شمس الرسالة، ويناله من حياتها وروحها فهو في ظلمة، وهو من الأموات، قال الله تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ﴾ [الأنعام: 122].

فهذا وصف المؤمن كان ميتًا في ظلمة الجهل، فأحياه الله بروح الرسالة ونور الإيمان، وجعل له نوراً يمشي به في الناس، وأما الكافر فميت القلب في الظلمات.

(1) ركائز الإيمان، ص: 245.

إن الله سمى رسالته روحاً والروح إذا عدم فقدت الحياة، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾ [الشورى: 52].

فذكر هنا أصلين هما: الروح والنور، فالروح الحياة والنور النور.

إن الله يضرب الأمثال للوحي الذي أنزله حياة للقلوب ونوراً لها بالماء الذي ينزله من السماء حياة للأرض، وبالنار التي يحصل بها النور وهذا كما في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ [الرعد: 17].

فشبه العلم بالماء المنزل من السماء، لأن به حياة القلوب، كما أن الماء حياة الأبدان، وشبه القلوب بالأودية، لأنها محل العلم، كما أن الأودية محل الماء، فقلب يسع علماً كثيراً وواد يسع ماءً كثيراً، وقلب يسع علماً قليلاً وواد يسع ماءً قليلاً، وأخبر تعالى أنه يعلو على السيل من الزبد بسبب مخالطة الماء، وأنه يذهب جفاءً، أي يرمى به ويخفى، والذي ينفع الناس يمكث في الأرض ويستقر وكذلك القلوب تخالطها الشهوات والشبهات، ثم تذهب جفاء ويستقر فيها الإيمان والقرآن الذي ينفع صاحبه والناس، وقال: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ﴾.

فهذا المثل الآخر هو الناري، فالأول للحياة، والثاني للضياء.

إن الكافر يعيش في ظلمات الكفر والشرك فهو غير حيّ، وإن كانت حياته حياة بهيمية، فهو عادم الحياة الروحانية العلوية التي سببها الإيمان، وبها يحصل للعبد السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة، فإن الله سبحانه جعل الرسل وسائط بينه وبين عباده في تعريفهم ما ينفعهم وما يضرهم، وتكميل ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم وبعثوا جميعاً بالدعوة إلى الله وتعريف الطريق الموصل إليه وبيان حالهم بعد الوصول إليه: وهذا يحتاج إلى معرفة ثلاثة أصول:

الأصل الأول: يتضمن إثبات الصفات والتوحيد والقدر وذكر أيام الله في أوليائه وأعدائه، وهي القصص التي قصها الله على عباده والأمثال التي ضربها لهم.

والأصل الثاني: يتضمن تفصيل الشرائع والأمر والنهي والإباحة، وبيان ما يحبه الله وما يكرهه.

والأصل الثالث: يتضمن الإيمان باليوم الآخر، والجنة والنار، والثواب والعقاب.

على هذه الأصول الثلاثة مدار الخلق والأمر والسعادة والفلاح موقوفة عليها، ولا سبيل إلى معرفتها إلا من جهة الرسل، فإن العقل لا يهتدي إلى تفاصيلها ومعرفة حقائقها، وإن كان يدرك وجه الضرورة إليها من حيث الجملة، كالمريض الذي يدرك وجه الحاجة

إلى الطب ومن يداويه، ولا يهتدي إلى تفاصيل المرض، وتنزيل الدواء عليه[1].

سادساً: الحكمة من إرسال الرسل:

من رحمة الله بعباده ومن جميل لطفه بهم وإحسانه إليهم أن بعث إليهم الأنبياء والمرسلين مبشرين ومنذرين، ليكونوا منارات للهدى وأعلاماً للفضيلة، ونجوماً زاهرة في سماء الإنسانية تضيء للعالم طريق الخير، وترشدهم إلى السعادة، وتنقذهم من براثن الشرك والوثنية وتسمو بهم إلى مدارج العز والكمال، وقد جرت سنة الله في خلقه ألا يعاقب أمة قبل أن يبعث إليها رسولاً يدعوهم إلى الخير والبر، وينهاها عن السوء والشر وذلك حتى لا يدع لأحد من البشر عذراً، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: 15].

ولئلا يقول الناس يوم القيامة: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: 19].

أو يتخذوا للعذاب: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: 134].

- وقال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 165].

فكانت حكمة الله ورحمته بعباده أن يقيم لهم موازين الحق

---

(1) فتاوى ابن تيمية (9/ 93 – 96)، الرسل والرسالات، عمر الأشقر، ص: 34.

والعدل ويفتح أعينهم على الهدى والرشاد وينصب لهم الدلائل والبراهين حتى تقوم الحجة وتتضح المحجّة[1].

سابعاً: وظائف الرسل ومهماتهم:

1 - دعوة الخلق إلى عبادة الله الواحد القهار: وهذه الحقيقة هي الوظيفة الأساسية، بل هي المهمة الكبرى التي يبعث الله من أجلها الرسل الكرام، وهي تعريف الخلق بالخالق ـ جلا وعلا ـ وإرشادهم إلى الإيمان بوحدانيته، وتخصيص العبادة له دون سواه، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: 36][2].

وقد بذل الرسل في سبيل دعوة الناس إلى الله جهوداً عظيمة، وحسبك في هذا أن تقرأ سورة نوح لترى الجهد الذي بذله على مدار تسعمائة وخمسين عاماً، فقد دعاهم ليلاً ونهاراً، سراً وعلانية، واستعمال أساليب الترغيب والترهيب والوعد والوعيد، وحاول أن يفتح عقولهم، وأن يوجهها إلى ما في الكون من آيات، ولكنهم أعرضوا، قال تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾ [نوح: 21][3].

---

(1) دراسات في التفسير الموضوعي، د. زاهر الألمعي، ص: 242.
(2) عقيدة التوحيد من الكتاب والسنة، سعاد ميبر، ص: 228.
(3) الرسل والرسالات، عمر الأشقر، ص: 45.

وقد ضربت الملائكة للرسول ﷺ مثلاً توضح دوره وتبين وظيفته، ففي الحديث: «**إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي، وميكائيل عند رجلي يقول أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلاً، فقال: اسمع سمعت أذنك واعقل عقل قلبك، إنما مثلك ومثل أمتك، كمثل ملك اتخذ داراً ثم بنى فيها بيتاً، ثم جعل فيها مائدة، ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامه، فمنهم من أجاب الرسول، ومنهم من تركه فالله هو الملك، والدار الإسلام، والبيت الجنة، وأنت يا محمد رسول، من أجابك دخل الإسلام ومن دخل الإسلام دخل الجنة، ومن دخل الجنة أكل ما فيها**» رواه البخاري والترمذي(1).

2 - **تبليغ أوامر الله ونواهيه للبشر**: فالأوامر الإلٰهية لابد لها من مُبلغ، ولابد أن يكون هذا المبلغ من البشر ليمكن الأخذ عنه، ولهذا فقد اختار الله عز وجل الرسل من البشر، وقد بلغ الرسل عليهم السلام، رسالة الله لخلقه على الوجه الذي أمر به دون زيادة أو نقصان أو تغيير أو كتمان، يقول تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: 39](2).

وقد جعل الله تعالى علامة الرسول «تبليغ الرسالة» وخاطب سيد الأنبياء بقوله عز من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: 67].

---

(1) صحيح الجامع (2/ 319).

(2) عقيدة التوحيد من الكتاب والسنة، ص: 229.

فالرسل سفراء الله إلى عباده، وحملة وحيه، ومهمتهم هي إبلاغ هذه الأمانة التي تحملوها إلى عباد الله والبلاغ يكون بتلاوة النصوص التي أوحاها الله من غير نقصان ولا زيادة، قال تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [العنكبوت: 45].

وقال تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ [البقرة: 151].

ومن البلاغ أن يوضح الرسول الوحي الذي أنزله الله لعباده لأنه أقدر من غيره على التعرف على معانيه ومراميه، وأعرف من غيره بمراد الله من وحيه، وفي ذلك يقول الله لرسوله ﷺ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 44].

والبيان من الرسول للوحي الإلهي قد يكون بالقول، فقد بيّن الرسول ﷺ أموراً كثيرة استشكلها أصحابه، كما بيّن المراد من الظلم في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: 82].

بيّن الرسول ﷺ أن المراد به الشرك، لا ظلم النفس بالذنوب، كما بيّن الرسول ﷺ الآيات المجملة في الصلاة والزكاة والحج وغير ذلك بقوله وكما يكون البيان بالقول يكون بالفعل، فقد كانت أفعال الرسول ﷺ في الصلاة والصدقة والحج وغير ذلك بياناً لكثير من النصوص القرآنية وعندما يتولى الناس ويعرضون عن دعوة الرسل، فإن الرسل لا يملكون غير البلاغ[1]، ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ [آل عمران: 20].

(1) الرسل والرسالات، ص: 44.

فالغاية من إرسال الأنبياء والمرسلين هو القيام بالتبليغ الديني، فلو لم يأتوا لما عرفنا المسائل المتعلقة بالعبادة، ولما وصلتنا الأوامر والنواهي ولما عرفنا واجباتنا وما فرض علينا[1].

إن رسولنا ﷺ تحمّل عبئاً كبيراً مثل عبء النبوة ثلاثة وعشرين عاماً، وقام بإيفاء حق وظيفته بنجاح منقطع النظير لم يتيسر لأي صاحب دعوة آخر، وبمثل هذه الروح وبهذه المشاعر الممتلئة بحب الله كان يتقدم ويقترب من الهدف المنشود ومن النهاية المباركة، وحج حجة الوداع وفي هذا الحج ركب رسول الله ﷺ ناقته وبلغ كل ما يجب تبليغه مرة أخرى، فمن قضايا القتل والفدية إلى حقوق المرأة إلى قضايا الربا إلى العلاقات بين الأقوام والقبائل إلى سواها من الأمور والمواضيع، بل كل ذلك مرة أخرى وكان يتوجه كل مرة إلى الجماعة المؤمنة قائلاً: «**ألا هل بلغت؟**» فكانت ترد عليه: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فكان يشير بأصبعه إلى السماء وينكبها على الناس قائلاً: «**اللهم أشهد، اللهم أشهد**»، ثلاث مرات[2].

لقد أدّى مهمته بحق، وقام بالتبليغ على أفضل وجه، لذا فقد كان مستريح الضمير، مرتاح النفس، مطمئن القلب، وكان يتهيأ لملاقاة ربه بعد أن استطاع أن يبلغ رسالة الله وحقق هدفه الذي من أجله أرسله خالقه[3].

---

(1) النور الخالد محمد مفخرة الإنسانية، محمد كولن، ص: 57.

(2) البخاري، الحج 132، مسلم الحج 147.

(3) النور الخالد، محمد فتح الله كولن، ص: 61.

3 - هداية الناس إلى طريق الخير وإرشادهم إلى الصراط المستقيم: فمن وظائف الرسل:

أ - هداية البشرية إلى معرفة الخالق وتوحيده:

إن الفطرة البشرية بذاتها تعرف وجود الخالق وتتجه إليه بالعبادة ولكنها كثيراً ما تضل، فتتصور الخالق على غير حقيقته وتشرك معه آلهة أخرى، ومن ثم يرسل الله الرسل ليعرّفوا البشر بحقيقة خالقهم وينفوا من عقولهم ونفوسهم التصورات الباطلة عن الله ﷻ وما يترتب عليها من الخرافات في الفكر والسلوك، وليعالجوا بصفة خاصة قضية الشرك وهي أشد ما يتعرض له البشر من انحراف في تصورهم للخالق وسلوكهم.

يقول الرسل جميعاً لأقوامهم: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: 59، 65، 73، 85].

فالله ﷻ واحد أحد: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: 1 - 4].

ومن ثم تنتفي كل نبوة لله أو قرابة لأحد من البشر أو الجن أو الملائكة مما تعج به خرافات الجاهلية، ما باد منها وما لا يزال باقياً حتى اليوم، كذلك ليس الله متمثلاً في صنم أو وثن أو في الشمس أو القمر أو النجوم أو غيرها من الكائنات، فكلها مخلوق والله هو الخالق ﴿لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ [فصلت: 37].

وكذلك فإن الله لا يشرك في حكمه أحداً ولا يوزع اختصاصاته

سبحانه على أحد من خلقه، ولا ينتزعونها هم منه قهراً عنه، قال تعالى: ﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: 26].

- وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سبأ: 22].

- وقال تعالى: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: 29].

كما يقوم الرسل بتعريف البشر بإلههم بصفاته كلها وأسمائه الحسنى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: 180].

- وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: 22-24].

فإذا عرف البشر ربهم على هذه الصورة، وانتفى كل وهم باطل عنه في أذهانهم وفي مشاعرهم، بقيت القضية الثانية التي يضل البشر بشأنها في جاهليتهم، وهي الطريقة الصحيحة لعبادة الله.

ب - العبادة الصحيحة:

إن العبادة ليست فقط في الاعتقاد بأن الله واحد لا شريك له،

ولا في تقديم شعائر التعبد من صلاة ونسك ودعاء الله وحده دون شريك، بل هناك أمر آخر، قال تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 3].

إنه لابد من اتباع ما أنزل الله، وإلا فقد بطلت العبادة ولم يصبح المعبود إلٰهاً واحداً وإنما إلٰهين اثنين: واحد تقدم له شعائر التعبد، وواحد يشرع وتطاع تشريعاته من دون الله، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النحل: 51].

تلك هي المهمة الكبرى للرسل جميعاً صلوات الله عليهم وسلامه، أن يهدوا البشرية للإلٰه الواحد، ويدلوهم على الطريقة الصحيحة لعبادته، وبذلك تقوم حياتهم على قاعدتها الصحيحة: إفراد الله ﷻ بالألوهية والربوبية وتوحيد العبادة له في الاعتقاد وشعائر التعبد واتباع ما أنزل الله من التشريع، أي الحكم بما أنزل[1].

4 - تقديم القدوة الحسنة: ومن الأسباب التي يمكن ذكرها لإرسال الله تعالى أنبياءه ورسله هو أن يكون أسوة حسنة وقدوة متبعة لأممهم، فالله تعالى يذكر في قرآنه الكريم: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: 90].

هذه الآية موجهة للرسول ﷺ توصية بالاقتداء بالأنبياء الذين سبقوه بعد أن ذكر أسماءهم واحداً تلو الآخر ثم أن القرآن الكريم يخاطبنا قائلاً: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ

(1) ركائز الإيمان، ص: 248.

يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21].

فالأنبياء أسوة حسنة لنا وهم أئمتنا، فكما نتبع الإمام في الصلاة نتبع سلوك الأنبياء في جميع تفاصيل الحياة ونقتدي بهم، ذلك لأن الحياة الحقيقية بل بالنسبة إلينا يمثلها نبينا ﷺ والأنبياء الآخرون والصحابة الذين عاشوا عهد رسول الله ﷺ اقتدوا به حذو النعل بالنعل[1].

5 - **تأمين التوازن بين الدنيا والآخرة:** أتى الأنبياء والرسل لتأمين التوازن بين الدنيا والآخرة، فبمقياس التوازن الذي جاؤوا به يستطيع ابن آدم أن يجد طريقه المستقيم ومنهاجه الصحيح ويتخلص من الإفراط والتفريط، أجل فلا يجب ترك الدنيا والاعتكاف في الأديرة والصوامع كالرهبان، ولا يجب الانغماس في الدنيا والانقلاب إلى عبد لها وأسير في يدها، بل الأفضل العثور على الطريق الوسط، ولا يمكن ذلك إلا بواسطة الوحي، فالعقل والوجدان لا يستطيعان إنشاء مثل هذا التوازن والعلم الصرف أبعد منهما عن الوصول إلى هذا الهدف وتحقيق هذه الغاية، إذ لا يستطيع رفع الإنسان إلى هذا المستوى والقرآن الكريم يشرح هذا التوازن فيقول: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: 77].

فإذا وضعت في إحدى كفتي هذا الميزان الإلهي الحقائق التي تنطق بها الآية الكريمة: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: 11] عليك

(1) النور الخالد، محمد كولن، ص: 62.

أن تضع التحذير الذي تتضمنه الآية: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: 8].

وهكذا يتم حفظ التوازن بهذه المقاييس والموازين ومع أن الدنيا أقبلت على الصحابة فإنهم عاشوا حياة متوازنة، ذلك لأن قدوتهم وأسوتهم ومرشدهم عاش كذلك[1].

6 - **تعريف الناس بالقيم الحقيقية**: التي تستحق الاعتبار وتستحق أن يحرص الناس عليها ويسعوا إلى تحصيلها فالناس بطبيعتهم منجذبون دائماً إلى متاع الأرض، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [آل عمران: 14].

وهم يحتاجون دائماً إلى من يرفعهم من ثقلة الأرض هذه ويبصرهم بالقيم العليا التي ينبغي أن يتجهوا إليها من صدق وإخلاص وأمانة وتضحية وكرم وشجاعة وإيثار وعدل مما يليق بالإنسان الذي كرمه الله وفضّله وجعله خليفة في الأرض وحمّله الأمانة الكبرى، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 70].

---

(1) المصدر نفسه، ص: 64.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الأحزاب: 72].

فالرسل والأنبياء يقرون ـ بصورة واقعية مشهورة ـ أن القيمة الحقيقية العليا هي الإيمان بالله، والدعوة إلى الله، والجهاد في سبيل الله، وأن ذلك أفضل وأعلى وأغلى من متاع الأرض كله، ومن الذهب والسلطان عندئذ تتغير القيم والمعايير في حياة الناس، فأما الأتباع الذين آمنوا فإنهم يرون رسولهم الذين اقتدوا به وآمنوا على يديه يصبر على الأذى في سبيل عقيدته ويصبر عليها ولا يتخلى عنها تحت أي ضغط من إغراء أو تهديد، فيقتدون به ويصبرون معه على الأذى والاضطهاد والتشريد والتعذيب والحرمان، ويستعلون بالعقيدة على متاع الأرض كله كما استعلى سحرة فرعون بعد إيمانهم، قال تعالى: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾ [طه: 70 - 73].

وأما بقية الناس فإنهم ـ تدريجياً ـ يستيقظون من غفلتهم، إذ يرون قوماً من الناس يهدّدون في أمنهم وراحتهم، وفي كل المتاع الذي يحرصون هم عليه ويرون أنه غاية الحياة كلها وأعلى ما فيها، ومع ذلك لا يتخلون عن إيمانهم وعن عقيدتهم، فيتعلمون أن هناك في الحياة ما يحرص عليه أكثر المتاع، وما يضحي من أجله المتاع، وذلك هو رضوان الله ومتاع الآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ

ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: 64].

وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: 185].

وعندئذ يعدّلون معايير حياتهم ليرتفعوا كما ارتفعت تلك الفئة المؤمنة ويدخلوا في الإيمان، وأما الذين أصروا على الباطل واستحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ورفضوا الهدى الرباني فأولئك مآلهم الدمار والبوار ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَاۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾ [إبراهيم: 28-30].

وهكذا تتقرر القيم العليا - في ذروتها - من خلال الصراع الذي يخوضه الرسل وأتباعه بين الحق والباطل، ويتميز النفع الحقيقي من الزيف، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: 17].

- وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: 251].

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ

وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 40][1].

7 - **التعريف والتعليم والتزكية**: من وظائف الأنبياء والمرسلين تعريف الناس بالمنهج الحق الذي تستقيم به حياتهم في الدنيا وينالون به رضوان الله في الآخرة، وذلك بتبليغ ما أوحى به الله إليهم وشرحه وبيانه، وتعريف الناس بطريقة تطبيقية وتدريبهم على ذلك كما يفعل المعلم مع تلاميذه حتى يطمئنوا أن أتباعهم قد وعوا ما أنزل الله وعياً صحيحاً وطبقوه التطبيق الصحيح، ولا تقتصر مهمة الرسل على التعريف والتعليم على ما لهذا الأمر من أهمية بالغة في حياة الناس، إنما تمتد إلى التربية - والتزكية - فليس دين الله معلومات تلقى ثم تحفظ إنما هو سلوك عملي بمقتضى التعليم الرباني[2]، والوحي الإلهي الذي أخرج الله به من شاء من الناس من الظلمات إلى النور، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: 257].

وقد أرسل الله رسله بهديه ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: 5].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: 2].

---

(1) ركائز الإيمان، ص: 254.

(2) ركائز الإيمان.

8 - **التذكير بفقه القدوم على الله**: والذي من مفرداته التذكير بالنشأة والمصير، وتعريف الناس بما بعد الموت من شدائد وأهوال، وإلى أين المصير، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: 115 - 116].

ويعرفون الناس بحقيقة الموت وأهمية تذكره في حياة الإنسان للابتعاد عن المعاصي وتليين القلب القاسي، وتهوين المصائب، فمن أكثر من ذكر الموت قلّ فرحه، وقلّ حسده، واستعد للرحيل.

يعلمون الناس إن حياة الإنسان لا تنتهي بانتهاء الحياة الدنيا، وإنما تنتهي مرحلة فحسب، وتبدأ مراحل أخرى تنتهي بالبعث والنشور والامتحان الذي يكرم المرء فيه أو يهان، فيصل إلى النعيم الخالد أو العذاب المقيم، فالحياة التي يحياها الناس على الأرض هي أقصر مراحلها؟ سنوات معدودة هي سنوات العمر المحدود، وبعد ذلك من الآماد ما لا يحصيه إلا الله ثم بعد ذلك الخلود.

ألا إنه هو الخسران المبين حين ينحصر تفكير الناس في الحياة الدنيا، ولو أصلحوا كل أمور الحياة الدنيا واستمتعوا فيها بكل ما يشتهون، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ [الشعراء: 205 - 207].

فكيف وهم لا يصلحون كل أمور الأرض؟ وكيف ونعيم الأرض دائماً مشوب، وأقل عيوبه القلق الدائم من تقلب الأحوال، وهي دائماً تتقلب، من الموت وهو لابد أن يجيء؟

إنها الخسارة المضاعفة، في الحياة الدنيا وفي الحياة الآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: 64].

لذلك فكل علم الأرض لا ينفع إذا انقطع بالإنسان عن الله واليوم الآخر، إنما العلم النافع هو الذي ينفع الناس في دنياهم وآخرتهم معاً، فيحقق لهم مصالحهم الحقيقية في الدنيا، ويصل بهم إلى دار الأمان في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [إبراهيم: 23].

وقال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: 102 - 103].

وفقه القدوم على الله: هو المعرفة اليقينية بالله واليوم الآخر، واتباع ما أنزل الله في الحياة الدنيا وهذا هو الذي يضمن للناس حاضرهم ومستقبلهم، فأما حاضرهم فيصلح ويستقيم باتباع المنهج الرباني، وأما مستقبلهم فيصلح بدخول الجنة التي وعد الله بها المتقين من عباده، الذين آمنوا به في الحياة الدنيا واستقاموا على أوامره وانتهوا عن نواهيه، وعندئذ يكون العلم الأرضي كله ـ من طب وهندسة وعلوم ورياضيات وكيمياء وفيزياء... إلخ ـ محققاً الفائدة لأنه يعين الناس على تحقيق المنهج الرباني ولا يفتنهم عن

الآخرة وإلا فإنه ـ هو ذاته ـ يصبح علماً ضاراً إذا استخدم في تزيين الحياة الدنيا تفتن الناس عن عبادة ربهم الحق، وتنسيهم ثواب الله وعقابه وتغرقهم في ضلال الشهوات.

وهذا العلم النافع ينفرد به الأنبياء والرسل لأنهم يتلقونه تلقياً مباشراً من الله ﷻ عن طريق الوحي، ويؤمنون به إلى درجة اليقين، ثم يدعون الناس إلى الإيمان به لتصلح دنياهم وآخرتهم[1].

وبالعلم النافع وحده صلحت أحوال الناس خلال التاريخ واستخدم العلم الأرضي في ظله في نفع الناس وفي الخير وبغير هذا العلم ـ الذي تفرد به الأنبياء والرسل، ودعا به الدعاة المؤمنون من بعدهم ـ ظل العلم الأرضي ينفع ويضر، ويزداد ضرره على نفعه على مر الأجيال[2]، عندما ابتعد عن هدايات السماء ووحي الهادي إلى الصراط المستقيم.

9 - قيادة الأمة وسياستها الدينية والدنيوية: فالرسول في قومه قائدهم وزعيمهم ورئيسهم وحاكمهم وقاضيهم ومدير سياستهم الدينية والدنيوية، ولذلك أمر الله اتباع كل رسول بطاعة رسولهم وجعل طاعتهم للرسول جزءًا من طاعته سبحانه، فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء: 64].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ

(1) ركائز الإيمان، ص: 364.

(2) المصدر نفسه، ص: 365.

وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: 59].

وأما كون الرسول حاكماً وقاضياً في أمته فتشهد له نصوص كثيرة من القرآن منها قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [المائدة: 49] (1).

- وقال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ [صٓ: 26].

- وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: 51].

- وقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: 80].

- وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: 31].

10 - الشهادة على الأمة وإقامة الحجة: لئلا يبقى للناس حجة عند الله تعالى كما قال سبحانه: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: 165].

ووظيفة الشهادة هذه يقوم بها أيضاً أتباع الرسول الذين بلغوا رسالته للناس في عصره وللأجيال من ورائه، وفي ذلك يقول الله تعالى في حق أمة محمد ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟

(1) عقيدة التوحيد من الكتاب والسنة، ص: 230.

شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ﴾ [البقرة: 143][1].

ولو لم يرسل الله الرسل إلى الناس لجاؤوا يوم القيامة يخاصمون الله ـ جل وعلا ـ ويقولون كيف تعذبنا وتدخلنا النار وأنت لم ترسل إلينا من يبلغنا مرادك منا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: 134].

أي لو أهلكهم الله بعذاب جزاء كفرهم قبل أن يرسل إليهم رسولاً لقالوا: هلا أرسلت إلينا رسولاً كي نعرف مرادك ونتبع آياتك ونسير على النهج الذي تريد؟ وفي يوم القيامة عندما يجمع الله الأولين والآخرين يأتي الله لكل أمة برسولها ليشهد عليها بأنه بلغها رسالة ربه، وأقام عليها الحجة: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾ [النساء: 41 ـ 42].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ [النحل: 89].

ولذلك فإن الذين يرفضون اتباع الرسل، ويعرضون عن هديهم، لا يملكون إلا الاعتراف بظلمهم إذا وقع بهم العذاب في الدنيا، قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ

(1) عقيدة التوحيد من الكتاب والسنة، ص: 230.

وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنبياء: 11 - 15].

وفي يوم القيامة عندما يساقون إلى المصير الرهيب، وقبل أن يلقوا في الجحيم يسألون عن ذنبهم فيعترفون، قال تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك: 8 - 11].

وعندما يضجّون في النار بعد أن يُحيط بهم العذاب من كل جانب وينادون ويصرخون تقول لهم خزنة النار: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [غافر: 50] (1).

11 - التبشير والإنذار: دعوة الرسل إلى الله تقترن دائماً بالتبشير والانذار، لأن ارتباط الدعوة إلى الله بالتبشير والإنذار وثيق جداً فقد قصر القرآن مهمة الرسل عليهما في بعض آياته، قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الكهف: 56].

وتبشير الرسل وانذارهم دنيوي وأخروي، فهم في الدنيا يبشرون الطائعين بالحياة الطيبة، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: 97].

---

(1) الرسل والرسالات، ص: 53.

وقال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: 123]. ويعدونهم بالعز والتمكين والأمن، قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ﴾ [النور: 55].

ويخوفون العصاة بالشقاء الدنيوي، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: 124].

ويحذرونهم العذاب والهلاك الدنيوي: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: 13].

وفي الآخرة يبشرون الطائعين بالجنة ونعيمها، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [النساء: 13].

ويخوفون المجرمين والعصاة عذاب الله في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: 14].

ومن يدرس دعوات الرسل يجد أن من وظائفها التبشير والإنذار[1].

ثامناً: من أهم صفات الأنبياء والمرسلين:

ذكر العلماء صفات في الأنبياء منها:

1 - الذكورة:

(1) الرسل والرسالات، ص: 48.

فالنبوة خاصة بالرجال ولا تكون للنساء أبداً والدليل على ذلك هو واقع حال الرسل، فالله سبحانه لم يختر رسله الذين بعثهم إلى الناس على مر العصور إلا من الذكور، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنبياء: 7].

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [يوسف: 109].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: 43].

قال الطبري: يقول تعالى ذكره ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا﴾ يا محمد ﴿مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا﴾ لا نساء ولا ملائكة[1].

والحكمة من تخصيص الرجال بالنبوة دون النساء أن النبوة عبء ثقيل وتكليف شاق، لا تتحمله طبيعة المرأة الضعيفة بتركيبها البيولوجي والنفسي الذي أعدت من خلاله لأداء وظائف الأمومة والتربية، ولهذا كان جميع الأنبياء من الذكور لأن مهام الرسالة مضنية تحتاج إلى مصابرة ومجاهدة، وتتطلب الكفاح والسفر وخوض المعارك وتحمل المشاق، والرجل أقدر على ذلك من المرأة، ولقد عانى الرسل جميعاً محناً قاسية من قبل أقوامهم حين كانوا يدعونهم، وابتلوا ابتلاءً شديداً في سبيل تبليغ دعوة الله، ولهذا

(1) تفسير الطبري (13/ 380).

قال تعالى مخاطباً سيد المرسلين: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: 35].

وكما اشترط في الرسل أن يكون ذكراً، كذلك لابد أن يكون حراً، لأن العبودية مطعن يطعن به الكفار على الرسول، ويعيرونه بها، هذا بالإضافة إلى أنها قيد لا يتفق مع المهمة التي أرسل الرسول من أجلها[1].

2 - البشرية:

لقد أكد القرآن الكريم على صفات الرسل البشرية لحماية جانب التوحيد، فالخالق خالق، والمخلوق مخلوق وإذا كانت تلك الصفات تدفع بالنفس الضعيفة أن تؤله هؤلاء الصفوة فإن هذه الصفات تعين على الثبات في الموقف الصحيح وتقي من الانزلاق، وهي مع تلك تكمل الصورة الحقيقية لهؤلاء الصفوة ومن الأمثلة على ذلك:

أ - التأكيد على أن هؤلاء الصفوة هم بشر من خلق الله:

- قال تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [إبراهيم: 11].

- وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: 110].

- وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَٰبَ وَالْحُكْمَ

---

(1) عقيدة التوحيد من الكتاب والسنة، ص: 239.

﴿وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 79].

ب - التأكيد على أنهم عباد الله:

- فعن نوح قال القرآن: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾ [القمر: 9].

- وعن داوود قال: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَـٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: 30].

- وعن أيوب قال: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ [ص: 41].

- وعن عيسى قال: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ [مريم: 30].

- وعن محمد - صلى الله عليه وعلى إخوانه وسلم -: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: 1].

وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ [الكهف: 1](1).

ج - ليس فيهم شيء من خصائص الألوهية:

إنهم لا يملكون من أمر الله شيئاً ولا ينفعون ولا يضرون ومقتضى كونهم بشراً أنهم ليسوا بآلهة وليس فيهم من صفات الألوهية شيء، ولذلك فإن الرسل يتبرؤون من الحول والطول ويعتصمون بالله الواحد الأحد، ولا يدعون شيئاً من صفات الله

---

(1) المحكم في العقيدة، ص: 139.

تعالى، قال تعالى مبيناً براءة عيسى مما نسب إليه: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة: 116 - 117].

والرسول لا يتصرف في الكون، ولا يملك النفع أو الضر ولا يؤثر في إرادة الله، ولا يعلم من الغيب إلا القدر الذي أراده الله له، قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 188][1].

- وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: 56].

- وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن: 21].

- وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: 58].

د - ذكر عوارضهم البشرية، كالمرض والجوع والتعب والأكل والموت والغضب . . . إلخ

---

(1) العقيدة الإسلامية، د. أحمد جلي، ص: 226.

فهم يتصفون بالصفات التي لا تنفك عنها البشرية، فمن ذلك كونهم جسداً يحتاجون لما يحتاج إليه البشر من الطعام والشراب ويحدثون كما يحدث البشر، لأن ذلك من لوازم الطعام والشراب.

- قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾﴾ [الأنبياء: 7 - 8].

ومن ذلك أنهم ولدوا كما ولد البشر، لهم آباء وأمهات، وأعمام وعمات وأخوال وخالات، يتزوجون ويولد لهم.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: 38].

ويصيبهم ما يصيب البشر من أعراض، فهم ينامون ويقومون ويصحون ويمرضون، ويأتي عليهم ما يأتي على البشر وهو الموت.

- قال تعالى في ذكر إبراهيم خليل الرحمن: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾﴾ [الشعراء: 79 - 81][1].

- وقال عن لوط: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: 77].

- وقال عن يعقوب: ﴿قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ [يوسف: 13].

(1) الرسل والرسالات، ص: 74.

وقال الله لعبده ورسوله محمد ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: 30].

وقال مبيناً أن هذه سنته في الرسل كلهم: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ [آل عمران آية: 144].

وقد جاء في وصف الرسول ﷺ: كان بشراً من البشر يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه[1].

وقد صح أن الرسول ﷺ قال لأم سليم: «**يا أم سليم، أما تعلمين أني اشترطت على ربي فقلت: إنما أنا بشر، أرضى كما يرضى البشر، وأغضب كما يغضب البشر، فأيما أحد دعوت عليه من أمتي بدعوة ليس لها بأهل، أن يجعلها طهوراً وزكاة وقربة يقربه بها منه يوم القيامة**»[2].

هـ - تعرض الأنبياء للبلاء:

الأنبياء لا يصابون بالبلاء فحسب، بل هم أشد بلاء، فعن الصعب بن سعد عن أبيه قال: قلت لرسول الله ﷺ: أيُ الناس أشدُّ بلاءً؟ قال: «**الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل يبتلي الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلباً أشتّد بلاؤه، وإن كان في دينه رقّة ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة**»[3].

(1) سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم 671 للألباني.

(2) المصدر نفسه رقم 84.

(3) المصدر نفسه رقم 143.

ودخل أبو سعيد الخدري على الرسول ﷺ وهو يوعك، فوضع يده على الرسول ﷺ، فوجد حرّ بين يديه فوق اللحاف، فقال: يا رسول الله، ما أشدها عليك، قال: «**إنا كذلك، يضعف علينا البلاء ويضعف لنا الأجر**»، قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاءً؟ قال: «**الأنبياء، ثم الصالحون، إن كان أحدهم ليبتلى بالفقر، حتى ما يجد إلا العباءة التي يحويها، وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء**»(1).

فالأنبياء قد يسجنون كما سجن يوسف، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ [يوسف: 33].

وذكر الله أنه: ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: 42].

وقد يصيبهم قومهم بالأذى وقد يرمونهم، كما أصابوا الرسول ﷺ في معركة أحد فأدموه، وكسروا رباعيته وقد يخرجونهم من ديارهم كما هاجر إبراهيم من العراق إلى الشام، وكما هاجر نبينا محمد ﷺ من مكة إلى المدينة، وقد يقتلونهم ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: 87].

وقد يصابون بالأمراض، كما ابتلى الله نبيه أيوب فصبر، وقد صحّ عن الرسول ﷺ أنه قال: «**إن نبي الله أيوب لبث في بلاءه ثمان عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه**(2)، وكان

(1) المصدر نفسه رقم 144.

(2) سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم 17.

من ابتلائه أن ذهب أهله وماله، وكان ذا مال وولد كثير»، قال تعالى: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء: 83 - 84].

و - اشتغال الأنبياء بأعمال البشر:

ومن مقتضى بشريتهم أنهم قد يقومون بالأعمال والأشغال التي يمارسها البشر فمن ذلك اشتغال الرسول ﷺ بالتجارة قبل البعثة، ومن ذلك رعي الأنبياء للغنم، فقد روى جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ نجني الكباث[1]، وأن رسول الله ﷺ قال: **«عليكم بالأسود منه فإنه أطيبه»**، قالوا: أكنت ترعى الغنم؟ قال: **«وهل من نبي إلا وقد رعاها»**[2].

ومن الأنبياء الذين نصّ القرآن على أنهم رعوا الغنم نبي الله موسى عليه السلام، فقد عمل في ذلك عدة سنوات، فقد قال له العبد الصالح: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القصص: 27-28].

قال ابن حجر: والذي قاله الأئمة أن الحكمة في رعاية الأنبياء

(1) الكباث: ثمر الأراك ويقال ذلك للنضج منه.

(2) البخاري، فتح الباري (6/ 438).

للغنم ليأخذوا أنفسهم بالتواضع، وتعتاد قلوبهم بالخلوة، ويترقوا من سياستها إلى سياسة الأمم[1].

ومن الأنبياء الذين عملوا بأعمال البشر داوود عليه السلام فقد كان حداداً يصنع الدروع، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ [الأنبياء: 80]. كان حداداً، وفي نفس الوقت كان ملكاً وكان يأكل مما تصنعه يداه، ونبي الله زكريا كان يعمل نجاراً[2].

ز - لِمَ لمْ يكن الرسل ملائكة؟

جميع الرسل من البشر، ومن نفس الأمم التي بعثوا فيها يتحدثون لغة قومهم ويعيشون بينهم، وقد كان ذلك لحكمة أرادها الله تعالى لم تتضح للمخاطبين وبالرسالات، ومن ثم أنكروا أن يكون الرسل بشراً:

- قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ﴾ [الأنعام: 91]. أو أن يتنزل الوحي الإلٰهي على واحد من البشر على الإطلاق.

- قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: 94].

لأن طاقات البشر وإمكانياتهم المألوفة لديهم لا تتناسب

---

(1) فتح الباري (6/ 439).

(2) ثبت في حديث صحيح رواه مسلم في صحيحه، انظر: مشكاة المصابيح (3/ 117)، الرسل والرسالات، ص: 7.

وتحمل الوحي، بل الذي يتناسب مع ظاهرة الوحي العجيبة نزول ملك يقوم بهذه المهمة أو يعين الرسول في القيام بها.

- قال تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: 24].

- وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: 7].

وقد بيّن القرآن أن هؤلاء القوم بمطلبهم هذا غفلوا عن عدة أشياء من بينها:

- إن الملائكة لم يخلقوا لسكن الأرض والعيش فيها باطمئنان، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء: 94-95].

- إن الملك لو نزل على الأرض فلابد أن يتخذ صورة البشر وعندئذ لا يستطيعون أن يتعرفوا على حقيقته الملائكية، ولا أن يميزوا بينه وبين سائر البشر.

- قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: 9].

- لو كان الرسول من غير البشر أنفسهم لانتفت الحكمة من إرساله، لأن الرسل أرسلوا لا للتبليغ فحسب، بل ليكونوا قدوة

عملية لأقوامهم، فلو كان الرسول ملكاً لما تحققت القدوة والمثال، ولامتنع الناس من الالتزام بأوامر الله، ولقالوا: نحن بشر لنا نزعات وشهوات وليس في وسعنا الالتزام بما تلتزم به الملائكة، فكيف يطلب منا الاقتداء بهم في أعمالهم، أفلا يرسل إلينا بشر مثلنا، يحس كما نحس، ويفكر كما نفكر، ويشعر بضروراتنا وبحدود طاقاتنا؟ وبذلك تتجلى الحكمة من إرسال الرسل بشراً، حتى لا يقف اختلاف الجنس حائلاً بين الناس وبين الاقتداء برسولهم فيما يفعل وما يقول، وحتى تتمثل الأسوة للبشر في واحد من جنسهم له ذات تركيبهم وذات ضروراتهم البشرية من طعام وشراب وملبس ومسكن . . إلخ فهو يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: 20].

والله ﷻ اصطفى الأنبياء والرسل، ومنحهم القدرة على تلقي الوحي الإلٰهي بإمكانات خاصة أودعها نفوسهم دون أن يخرجهم ذلك عن حدود بشريتهم[1].

3 - الصدق:

الصدق هو محور النبوة، ومدار ارتكازها، فكل ما تلفظه الأنبياء صدق خالص ولا يمكن أن يجافي الواقع أو الحقيقة وعندما يشرح القرآن الكريم فضائل الأنبياء يشير إلى هذه الصفة عندهم[2].

---

(1) العقيدة الإسلامية، د. أحمد جلي، ص: 226.

(2) النور الخالد محمد مفخرة الإنسانية، ص: 75.

لقد وصف الله تعالى أنبياءه بالصدق على سبيل التعيين أو الإجمال في غير ما آية من كتابه العزيز كقوله عن إدريس عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: 56].

- وقوله عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: 41].

- وقوله عن إسماعيل عليه السلام: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: 54].

- وقوله عن موسى عليه السلام: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ﴾ [الأعراف: 105].

- وقوله عن يوسف عليه السلام: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ [يوسف: 46].

وقوله فيه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف: 51].

- وقوله في حق نبينا محمد ﷺ: ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [الأحزاب: 22].

- وقوله في حقه أيضاً: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزمر: 32 - 33].

فسمّي ما جاء به من عند الله من أحكام شرعه، وأخبار رسله وخلقه، قرآناً أو سنة، سماه صدقاً، وذلك وقف له بالالتزام، إذ لا يأتي بالصدق إلا صادق وذلك مما لا جدال فيه، حيث كان صدقه

معلوماً من حداثة سنه، وشهد له بذلك أعداؤه قبل أصدقائه، فإن الأعداء من الكفرة والمشركين لم يكونوا يشكون يوماً في صدقه كما قال تعالى: ﴿يَقُولُونَّ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: 33].

وكما كانوا يشهدون له بذلك في مواقف مختلفة فقد ذكر بعضها ومثل هذا الدليل الالتزامي قول الله تعالى في حقه ﷺ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة: 44 - 47].

حيث دلل الله تعالى على صدق نبيه بدليل التمانع، فقد امتنع أخذه سبحانه لنبيه ﷺ بتلك الصفة، لامتناع تقوله عليه، وامتناع التقول عليه يعني الصدق فيما يقول، فالآية إذاً تطمئن النفوس على صدق وأحقية ما جاء به محمد ﷺ غاية الاطمئنان، إذ دلت على أن الله تعالى له بالمرصاد إن هو تقوّل عليه، ـ وحاشاه ذلك ـ والواقع خلافه، فإن الله تعالى مازال يؤيده بالمعجزات الدالة على صدقه، وهي منزّلةٌ منزلة أن يقول الحق تبارك وتعالى: «صدق عبدي فيما يبلغ عني»، إذ لولا صدقه لما أمدّه بها، كما يعلم من حال الكذّابين من مدّعي النبوة، وكما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ [الشورى: 24][1].

ولكن لما كان الله تعالى يؤيد نبيه المصطفى ﷺ بالمعجزات الباهرات، وينصره على عدوه المرة تلو الأخرى ويظهر دينه يوماً بعد يوم، دلّ ذلك على صدقه ﷺ فيما يبلغ عن ربه جل شأنه.

(1) النبوة والأنبياء لابن تيمية، ص: 228 - 230.

وقد أكد الله تعالى ذلك بأدلة أخرى كثيرة، كقوله سبحانه: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: 1 - 4].

فهذا قسم من الله جلّ وعلا، على أن ما ينطق به النبي ﷺ هو وحي من الله تعالى لا مجال لمحمد ﷺ في أن يأتي به من عنده أو أن يتقوله عنه(1).

- وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٥ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٦ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝١٧﴾ [يونس: 15-17].

- وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: 93].

ولقد اشتهر الرسول ﷺ منذ الصغر بالصدق والأمانة حتى كان المشركون يسمونه الصادق الأمين وكانت ثقتهم به تامة، ومع أنه لم يكن قد بعث بعدُ نبياً إلا أنه كان محط ثقة الجميع، إذ كان يحمل جميع صفات الأنبياء.

أجل، فالفضل ما شهدت به الأعداء، فها هو أبو سفيان ألد

---

(1) أخلاق النبي في القرآن والسنة، د. أحمد عبد العزيز الحداد (2/ 999).

أعداء الرسول ﷺ آنذاك يشهد بصدقه، ففي رواية لعبد الله بن عباس عن أبي سفيان أنه قال: إن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، فأتوه وهم بإيليا[1] فدعاهم إلى مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه فقال: أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم نسباً، فقال: ادنوه مني وقرّبوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره. ثم قال لترجمانه: قل لهم إني سائل هذا عن هذا الرجل، فإن كذبني فكذبوه، فوالله لولا الحياء من أن يأثروا عليّ كذباً لكذبت عنه، ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا، قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا، قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم. قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون، قال: فهل يرتد أحد منهم سخطه لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا، قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت: لا، قال: فهل يغدر؟ قلت: لا ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها، قال: ولم تمكن كلمة أدخل فيه شيئاً غير هذه الكلمة. قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه، قال: ماذا يأمركم؟ قلت: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً واتركوا ما يقول آباؤكم ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة، فقال الترجمان: قل له: سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو

(1) إيلياء: بيت المقدس.

نسب، فكذلك الرسل تُبعث في نسب قومها، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول فذكرت لا، فقلت، لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتسي بقول قيل قبله، وسألتك هل كان آبائه من ملك، فذكرت أن لا. قلت: فلو كان من آبائه من ملك، قلت رجل يطلب ملك أبيه وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا. فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله[1].

والنص طويل ونقتصر على هذا القدر، وأهم ما يلفت النظر هنا وجود دليلين على صدق رسول الله ﷺ، أولهما: هو هرقل إمبراطور الروم الذي قال ما أوردناه آنفاً، والثاني: هو جواب أبي سفيان الذي كان يعترف بصدق رسول الله ويقبله مع أنه لم يكن قد أسلم بعد، ولكن هرقل أضاع فرصة ذهبية جاءت إليه، إذ أن حبه لملكه أضاع عليه الحصول على الملك الحقيقي الخالد فلم يسلم ولم يدخل في أمة الإسلام السعيدة[2].

4 - التبليغ:

إن مهمة الرسل الأولى التي كلفهم الله تعالى بها إلى الأمم ليخرجوهم من الظلمات إلى النور هي التبليغ الذي أوجبه الله تعالى عليهم بمقتضى اصطفائهم للرسالة التي حملهم إياها، فيجب عليهم التبليغ ويستحيل عليهم الكتمان ويجب على المسلمين اعتقاد ذلك فيهم، تصديقاً لشهادة الله تعالى لهم بذلك، قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى

(1) البخاري، كتاب الوحي باب (1/ 7).

(2) النور الخالد، ص: 79.

ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل: 35].

وقد قام رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم بواجب ذلك البلاغ أكمل قيام حيث بلغوا كل صغيرة وكبيرة ليلاً ونهاراً، لا يفترون عن ذلك، ولا يملّون حتى قامت الحجة على أقوامهم، فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة وقد كانوا ينالون من جراء ذلك الشدة الشديدة والإيذاء البليغ، وذلك لما هم عليه من الرحمة بأممهم والشفقة بهم لعلمهم بما سيحيق بهم من العذاب إن أعرضوا عن قبول ما بُلغوه عن الله تعالى جل جلاله، فكان كل واحد يبذل جهده ويتفانى في إقناع قومه بقبول ما أمر بتبليغه إليهم ويتلطف لهم بالخطاب ليقبلوا ما جاؤا به من عند الله تعالى، كما حكى الله تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأعراف: 61 - 62].

- وكما قال هود لقومه أهل عاد: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأعراف: 67 - 68].

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على التلطف بالبلاغ وكمال الرحمة بالمبلغين، فكانوا غير مقتصرين على مجرد البلاغ الواجب عليه قط.

بل إنهم كانوا يتفانون في النصيحة لأقوامهم بقبوله فيجادلونهم ويحاورونهم، بالتي هي أحسن حتى يقبلوا أو ييأسوا من ذلك،

فعندئذ لا يسعهم إلا أن يقولوا: ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [يس: 17].

- كما قال هود عليه السلام لما يئس من قوم عاد من قبول رسالة الله: ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [الأحقاف: 23].

وقال أيضاً: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ [هود: 57].

- وكما قال صالح عليه السلام: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: 79][1].

- وقال شعيب عليه السلام: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: 93].

وهكذا نجد جميعاً الرسل يعلنون بكل صراحة ووضوح أنهم قد بلغوا رسالة الله ونصحوا للأمة، حتى خاتم الرسل «محمد» صلوات الله عليه يأمره ربه بتبليغ الرسالة فيقول مخاطباً له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: 67].

فكل رسول مكلف بتبليغ الدعوة والرسالة، ولا يمكن لأحد من الرسل أن يزيد حرفاً أو ينقص حرفاً مما نزل عليه لأنه يكون قد

(1) أخلاق النبي في القرآن والسنة (2/ 1006).

خالف أمر الله، وخان الأمانة التي عهدت إليه ولهذا نجد بعض السور أو الآيات الكريمة تبدأ بقوله تعالى: «قُل» وهو أمر موجه للنبي عليه الصلاة والسلام ليبلغه لأمته، فيبلغها الرسول كما نزلت عليه دون زيادة أو نقص، اقرأ مثلاً قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِىۖ﴾ [يوسف: 108].

- وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ [الكافرون: 1 - 2].

- وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق: 1].

- وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: 1].

وقد كان يكفي الرسول أن يبلغ الأوامر الإلٰهية دون تلك اللفظة التي خوطب بها، ولكنه أمين على الوحي يبلغ رسالة ربه بالحرف الواحد دون تغيير أو تبديل، أو زيادة أو نقصان، فلم يقل: ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ ولم يقل: ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ أو ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ وإنما ذكر الأمر الذي توجه إليه من العلي القدير، بنفس الصيغة ونفس الحروف، وذلك دليل الأمانة القصوى في تبليغ الدعوة والرسالة والغرض من «التبليغ» أن يقطع الله الحجة على الناس، ولئلا يبقى لأحد عذر يوم القيامة فإن الله تبارك وتعالى أكرم من أن يعذب إنساناً قبل أن تبلغه الرسالة وأرحم من أن يعذبه دون ذنب، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: 15](1).

---

(1) النبوة والأنبياء، محمد على الصابوني، ص: 51.

كان التبليغ لدى سيد المرسلين فطرة وسجية، كانت نفسه تضيق عندما لا يجد قلباً طاهراً يبلغه دعوته، مثلما نضيق نحن إن حُرمنا من الأكل والشرب، أو عندما نُحرم من تنفس الهواء. والحقيقة أنه ﷺ ما كان يهتم بالأكل والشرب، فقد كان يصوم أحياناً صوماً متواصلاً وكان يأكل أحياناً ما يكفي لسد رمقه فقط وإبقائه حياً، فقد كان قلبه المفعم بآلام دعوته لم يدع لديه شهية للأكل فكما تعيش الملائكة بالتسبيح، كان رسولنا ﷺ يعيش بالدعوة وعندما يجد أمامه صدراً رحباً وطاهراً يفرح وينشط والقرآن الكريم يصف وضعه هذا فيقول: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: 3].

وفي آية أخرى يقول: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: 6][1].

5 - الفطانة والحكمة وقوة الحجة:

وهذه الصفات واضحة في القرآن الكريم في سير الأنبياء والمرسلين، فقد قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: 83].

- وقال تعالى عن داوود عليه السلام: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة: 251].

- وقال أيضاً: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: 20].

---

(1) النور الخالد، ص: 171.

- وعن يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 55].

ويمكن ملاحظة هذه الصفات من خلال هذه الأمثلة القرآنية(1) والنبوية.

أ - إبراهيم عليه السلام:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: 51].

فسيدنا إبراهيم عليه السلام في غاية الذكاء والنباهة والحكمة وقوة الحجة وانظر إليه في موقف المحاجة لقومه المشركين نجد فيها آيات النبوغ والحكمة والذكاء، قال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء: 58-67]

وحقاً أنه لمنتهى الذكاء والنبوغ، يتجلى عمل إبراهيم عليه السلام، فلقد حطم بيده الأصنام، ثم علق القدوم في عنق أكبر الأصنام،

(1) المحكم في العقيدة، ص: 134.

ليقيم الحجة على قومه فحين قدموه للمحاكمة سألوه هذا السؤال: من الذي حطم آلهتنا وأقدم على تكسير الأصنام؟ هل أنت فعلت ذلك يا إبراهيم؟ فأجابهم إبراهيم عليه السلام: إنني لم أحطمها، ولكن الصنم الكبير والإله العظيم هو الذي حطمها لأنه لم يرض أن تعبد معه، والدليل على ذلك أنه وضع القدوم في عنقه، وإذا لم تصدقوا كلامي فاسألوهم عن ذلك الأمر وسلوه. وهنا كان قد بلغ إبراهيم إلى هدفه، فأقام عليهم الحجة بعد أن سفه عقولهم، وجعلهم يضحكون من أنفسهم وهكذا يكون منطق الأنبياء.

وانظر إليه في موقف آخر وهو يجاد الطاغية «النمرود» الذي نازع الله في ملكه وزعم أنه إله يعبد من دون الله، وأنه الرب المعبود، كيف كان نبوغ إبراهيم وذكاءه؟

وكيف دحض خصمه العنيد، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: 258] (1).

فانظر في الآيات السابقة لما أراد الطاغية أن يروغ في قضية الإماتة والإحياء كيف ترك إبراهيم هذه المسألة، وفاجأ الطاغية بسؤال لم يتوقعه فأرداه باهتاً، وتصور لو أن افترضنا أن إبراهيم بقي يجادله في المسألة الأولى ماذا تكون النتيجة؟ ثم لاحظ أن سؤال

---

(1) النبوة والأنبياء، للصابوني، ص: 53.

إبراهيم الثاني لا يدع المجال حتى للمكابر، فتخيل لو أن إبراهيم قال له: من خلق الشمس؟ فإن المكابر قد يقول: أنا، ولكن إبراهيم طالبه بفعل جديد في الشمس، فماذا يقول المكابر؟[1]

فقد أقام إبراهيم عليه السلام الحجة الدامغة بفطنته النيرة، بحيث لم يستطع مواصلة اللجاج والعناد، وبذلك عرف خبره لأتباعه وأنه أحقر من أن يخلق بعوضة أو يدبر أمراً، وتبين لهم بذلك أن دعواه الألوهية محض افتراء ولكنهم مع ذلك لم يهتدوا، إذ الناس غالباً على أديان ملوكهم وأتباع كل ناعق[2].

ومن فطنة إبراهيم عليه السلام وحكمته وقوة حجته مناظرته لقومه في شأن معبوداتهم من الكواكب، حيث استطاع إقامة الحجة الدامغة عليهم في بطلان ألوهيتها بما لم يدع شكاً للمنصف العاقل، فقد استدرجهم في تفنيد اعتقادهم شيئاً فشيئاً، حتى أتى على معتقدهم الزائف من أساسه وأقام الحجة الدامغة على اجتثاثه، كما قصه الله تعالى علينا ذلك بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: 75-79].

---

(1) المحكم في العقيدة، ص: 135، 136.

(2) أخلاق النبي في القرآن والسنة (2/ 1041).

بيّن إبراهيم عليه السلام أولاً عدم صلاحية الكواكب للألوهية، ثم ترقّى منها إلى القمر الذي هو أضوأ منها وأبهى، ثم ترقى إلى الشمس التي هي أشد الأجرام المشاهدة ضياءً وسناءً وبهاءً، فبين أنها مسخرة مسيرة مقدرة مربوبة فلا تصلح أن تكون رباً[1].

وأن الرب شأنه أن يكون مدبراً مسخراً ضاراً نافعاً، وأن هذه الكواكب لا تملك شيئاً من هذه الأمور، فهي إذاً لا تستحق أن تعبد، فأعلن براءته منها وإخلاص عبوديته لله تعالى قائلاً: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 79].

وبذلك زعزع إيمانهم في معتقداتهم الضالة بهذه الكواكب السيّارة، التي لا تملك ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وذلك بفضل الله تعالى، ثم بفضل هذا الأسلوب الجدلي الحكيم القائم على استدراج المخاطب بالتسليم بدعاويه ثم الكر عليها بالبطلان، لقوة الحجة والبرهان، وما كان له بذلك من قوة لولا الفطنة الكبرى التي رزقه الله تعالى إياها، لتساير تكليفه بالرسالة[2].

ب - نوح عليه السلام:

استطاع نوح عليه السلام بفطنته وحكمته وقوة حجته أن يُفحم مناوئيه من قومه حتى أقروا له بالعجز عن مجادلته واستعجلوا ما يتوعدهم به من العذاب، وقالوا: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا

(1) أخلاق النبي ﷺ في القرآن (2/ 1041).

(2) المصدر نفسه (2/ 1041).

بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [هود: 32].

ذلك لأنه ما فتئ يناظرهم ويجادلهم ويحاججهم، كلما أتوه بشبهة فنّدها وكلما جادلوه أسكتهم، فلا يملكون جواباً ولا رداً ولا حجة، فلما قال له: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [هود: 27]. أجابهم نوح عليه السلام بقوله: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [هود: 28-31].

فقومه لما جادلوه بما يُنمي عن قصور عقولهم حيث احتجوا عليه بفقده وسائل السؤدد عليهم في نظرهم من المال والجاه، فرأوا أنه غير أهل لشرف الرسالة لذلك، وأنه من جنسهم البشري، وظنوا أن شرف الرسالة ينبغي أن يكون لغير هذا الجنس، مع أنه الجنس الذي كرّمه الله وشرفه على كثير من الأجناس، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: 70].

فلما قصر نظرهم عن إدراك أسباب الكمال حيث نظروا إليه وإلى أتباعه، فلم يروا في أجسامهم ما يميزهم عن الناس، بل أن

أتباعه من ضعفاء قومهم، ورأوا أن ذلك علامة كذبه وضلال أتباعه، لما كان أمرهم كذلك سلك نوح عليه السلام في مجادلتهم مسلك الإجمال لإبطال شبههم، ثم مسلك التفصيل لرد أقوالهم.

أما مسلك الإجمال فسلك فيه مسلك القلب، بأنهم إن لم يروا فيه وفي أتباعه ما يحمل على التصديق برسالته، فكذلك هو لا يستطيع أن يحملهم على رؤية المعاني الدالة على صدقه وأنه لا يستطيع منع الذين آمنوا به من متابعته والاهتداء بالهدى الذي جاء به، وأنه لم يدع فضلاً غير الوحي إليه كما حكى الله عن أنبيائه ورسله عليهم السلام في قوله: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم: 11].

ثم فصل إجابته السابقة فأجابهم عما توهموه من أن من لوازم النبوة أن يكون أغنى منهم أو أن يعلم الأمور الغائبة بقوله: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ [الأنعام: 50].

والمعنى: لا أدعي ما ليس لي فتنكروا قولي وتستبعدوا ما آتاني الله من فضل النبوة.

وعن دعواهم بأنه بشر لا يستحق أن يتميز عنهم بالرسالة أجابهم بقوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ [الأنعام: 50] يعني بل أنا بشر مثلكم تعرفوني وأعرفكم، ولكن آتاني الله فضل الرسالة إليكم، وعن دعواهم باسترذال أتباعه لكونهم من ضعفائهم وفقرائهم أبطله بطريقة التغليط لأنهم جعلوا ضعفهم وفقرهم سبباً لانتفاء فضلهم، فأبطله بأن ضعفهم ليس بحائل بينهم وبين الخير من الله تعالى إذ لا ارتباط بين الضعف في الأمور الدنيوية من فقر وقلة، وبين الحرمان

من نوال الكمالات النفسانية والدينية، فقال: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًاۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْۖ﴾ [هود: 31].

وهكذا فند ادعاءاتهم واحدة واحدة بما لم يترك لهم مجالاً للمكابرة، حيث قرر لهم بذلك الحقائق الثابتة في شأنه والتي لا يجهلونها، وجعلهم في واقع الأمر مسلّمين بأنه لا يحملهم على مجادلته إلا محض الكبر ومجرد اللجاج والعناد فما كان لهم بعد ذلك من طاقة في الصبر على مجادلته المفحمة، فعدلوا إلى استعجال العذاب الذي يتوعدهم به، لما سئموا من تزييف معارضتهم وآرائهم شأنهم بذلك شأن المبطل إذا دمغته الحجة فقالوا: ﴿يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [هود: 32][1].

ج - يوسف عليه السلام:

قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا

---

(1) أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة (2/ 1040).

تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾ [يوسف: 36-41].

ومن فطنة يوسف عليه السلام وحكمته وقوة حجته توظيفه حاجة صاحبيه إلى علمه، فشرع في بث عقيدته الصحيحة بين السجناء وتوضيح التوحيد وخطورة الشرك ويبدو في طريقة تناول يوسف للحديث لطف مدخله إلى النفوس، وكياسته وتنقله في الحديث في رفق لطيف[1]، ولما أكمل مهمته في تبليغ الدعوة شرع في تفسير الرؤيا للسجينين.

د - محمد رسول الله ﷺ:

قال تعالى: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾ [القلم: 1 - 2]. حيث أقسم المولى جل وعلا قسماً مؤكداً على نفي الجنون عنه الذي كان يرميه به بعض المشاغبين من أهل الكفر والعناد، كما قال سبحانه: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم: 51]. وذلك رداً عليهم وتكذيباً لقولهم كما قال في آية أخرى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: 22]. وقال: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور: 29]. وفي ذلك النفي إثبات لكمال عقله، وأنه من إنعام الله عليه بحصافة العقل والشهامة التي يقتضيها التأهيل للنبوة

(1) في ظلال القرآن (4/ 1988)، المحكم في العقيدة، ص: 136.

بمنزلة عظمى لا يرقى إليها. وقد برهن الله تعالى على كمال عقله إضافة إلى قسمه المؤكد - بعظمة أخلاقه حيث قال بعد ذلك: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝﴾[القلم: 3 - 4].

إذ أن صاحب الخلق العظيم، لا يكون إلا في منتهى الكمال العقلي والصفاء الذهني، لأن العقل أصل فروع الفضائل الخُلُقية وعنصر ينابيعها ونقطة دائرتها حيث يتفرع منه: ثقوب الرأي وجودة الفطنة والإصابة، وصدق الظن، والنظر للعواقب، ومصالح النفس، ومجاهدة الشهوة، وحسن السياسة والتدبير، واقتناء الفضائل وتجنب الرذائل، وقد كان ﷺ من هذه كلها في الغاية القصوى التي لم يبلغها بشر سواه(1).

وقال القاضي عياض بعد أن قرر أنه لا مرية في أنه ﷺ أعقل الناس وأذكاهم، قال: ومن تأمل تدبيره أمر بواطن الخلق وظواهرهم وسياسة العامة والخاصة مع عجيب شمائله، وبديع سيره، فضلاً عما أفاضه من العلم وقرره من الشرع، دون تعلم سابق، ولا ممارسة تقدمت ولا مطالعة للكتب فيه، لم يمتر في رجحان عقله وثقوب فهمه لأول بديهة(2)، ومن الأمثلة على فطنته وذكائه:

- سرعة إقامة الحجة على المعارضين وقطع شغبهم وجدالهم بالباطل، فلا يستطيعون مجاراته أو مكابرته، بل لا يسعهم إلا الإذعان والتسليم أو النكوص على أعقابهم خاسئين ومن ذلك ما

(1) الشفاء للقاضي عياض (1/ 216).
(2) الشفاء (1/ 161).

أجاب به أبا سفيان يوم أحد: حينما افتخر أبو سفيان وهو على شركه إذ ذاك بأوثانه إثر المعركة التي انجلت عن نصر له ولقومه أهل الشرك والوثنية، فقال متبجحاً: أُعلُ هُبل[1]، فقال ﷺ: «**أجيبوه**»، فقالوا: ما نقول؟ قال: **قولوا** :«**الله أعلى وأجلّ**» قال أبو سفيان: لنا العُزى[2]، ولا عزّى لكم. فقال ﷺ: أجيبوه. فقالوا: ما نقول؟ قال: «**قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم**». فقال أبو سفيان: يوم بيوم والحرب سجال، وتجدون مثلة لم آمر بها ولم تسؤني، فقال ﷺ: أجيبوه. فقالوا: ما نقول؟ قال: «**قولوا: لا سواء قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار**»[3].

- ومن مظاهر كمال فطنته ﷺ سرعة حله للمشاكل المستعصية التي تحار في حلها العقول الكبيرة الشهيرة، فقد حاول المنافقون ذات مرة أن يفككوا عُرى الوحدة بين المهاجرين والأنصار، فكانت حكمة النبي ﷺ وفطنته لهم بالمرصاد، فأحبطت تلك المحاولة الخبيثة وأجهضتها في حينها، وذلك أن رجلاً من غلمان المهاجرين كَسع[4] رجلاً من غلمان الأنصار إثر اختلاف بينهما على الماء، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**ما بال دعوى الجاهلية** »؟ قالوا: يا رسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال ﷺ: «**دعوها فإنها مُنتِنه**» فسمع بذلك عبد الله بن أبيّ رأس المنافقين. فقال: فعلوها؟ أما

---

(1) اسم للصنم الأكبر الذي كانوا يعبدونه.

(2) اسم صنم لهم كان بالطائف، تفسير غريب الحديث 166.

(3) البخاري، كتاب المغازي (5/ 121).

(4) الكسع: أن تضرب بيدك على شيء أو برجلك.

والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فبلغ النبي ﷺ فقام عمر رضي الله عنه فقال: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: «**دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه**»[1].

ثم سار رسول الله ﷺ بالناس يومهم أجمع حتى أمس وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مسسَ الأرض، فوقعوا نياماً. وإنما فعل ذلك ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس[2]، حيث خاض الناس في حديث عبد الله بن أبيّ، وفي النزعة الجاهلية التي كادت تقضي على وحدة المجتمع المسلم لولا حكمة رسول الله ﷺ وسياسته الماهرة، وفطنته العظيمة، في إطفاء لهبها بسيره الميمون ذلك الذي أشغلهم به عن الخوض في تلك الفتنة العمياء التي أراد رأس النفاق أن يشعلها، ليحقق غرضه في زعزعة المجتمع المسلم وإطفاء نور الله، ولكن الله رد كيده في نحره بفضل ما آتى نبيه من الحكمة والفطنة والحلم فصلوات ربي وسلامه عليه.

وكم كانت فطنته وحكمته تحل من مشاكل عديدة في أسرع وقت وأقصره، فيتحقق بذلك له ولأمته ما يصبون إليه من نصر وسعادة وعز وسيادة، ينوء عنها الحصر في مثل هذا المقام المقتضي للإيجاز، والإتيان من كل بحر قطرة كنموذج لغيره، والدليل على ما سواه ومن ذلك براهينه الساطعة القاطعة التي كان يقيمها على مجادليه ومناظريه من مشركين وأهل كتاب، التي كانت تقطع دابرهم

---

(1) البخاري كتاب التفسير في سورة المنافقين (6/ 191).

(2) عيون الأثر لابن سيد الناس (2/ 94)، البداية والنهاية (4/ 158).

وتزهق باطلهم، وتجعلهم يوقنون أنهم في ضلالهم يعمهون ويعميهم عن اتباع الحق بعد سماع تلك القوارع البينة: الكبر والعناد والرسوخ في الإلحاد(1).

وهكذا جميع الأنبياء والرسل، أعطاهم الله العقل والرشد، فكانوا على أكمل وجوه الذكاء والنبوغ، فقد خصهم الله تعالى بالذكاء الخارق، والفطنة والنباهة، ليستطيعوا إقامة الحجة على أقوامهم، وقد جرت حكمة الله الأزلية، أن يختار للرسالة أكمل الناس عقلاً، وأوفرهم ذكاء، وأقواهم حجة وبرهاناً ليظهر ضياء الحق وتعلو دعوة الله وصدق الله حيث يقول: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ﴾ [الأنعام: 124].

وإذا كان البشر يعتريهم النقص، وتضعف قواهم العقلية وربما وصل البعض منهم إلى حالة «الخرف» عند بلوغ سن الشيخوخة، فإن الأنبياء الكرام يظلون في القمة العليا من رجاحة العقل، وقوة التفكير مهما امتدت أعمارهم لأن الله تعالى قد أحاطهم بعنايته، وحفظهم برعايته، ولا يمكن أن تضعف حواسهم الفكرية وتتعطل مواهبهم العقلية، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم(2).

6 - الأمانة:

وهي أن يكون النبي أميناً على الوحي، يبلغ أوامر الله ونواهيه

---

(1) أخلاق النبي في القرآن والسنة (2/ 1052).

(2) النبوة والأنبياء، ص: 54، للصابوني.

إلى عباده، دون زيادة أو نقص، ودون تحريف أو تبديل امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: 39].

فالأنبياء جميعاً مؤتمنون على الوحي، يبلغون أوامر الله كما نزلت عليهم، لا يمكن لهم أن يخونوا أو يخفوا ما أمرهم الله تعالى به، لأن الخيانة تتنافى مع الأمانة وهل يليق بالنبي أن يخون أمانته، فلا ينصح الأمة ولا يبلغ رسالة الله[1]؟

ولذلك كان وصف الأمانة واجباً، ويجب على الأمة اعتقاده فيهم، وقد أثنى الله تعالى به عليهم في آيات كثيرة كما قال هود عليه السلام: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: 68].

وكما قال عن يوسف عليه السلام: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: 54].

وقص عن نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام مقالة كل منهم لقومه وهو يدعوهم للإيمان: ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء، آيات: 107، 125، 143، 162، 168، والدخان: 18].

وقص مقالة ابنة شعيب عليه السلام في وصفها لموسى عليه السلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: 26].

إلى غير ذلك من الآيات الواصفة لهم بهذا الخلق، دون سائر أوصافهم الحميدة وكل أوصافهم حميدة، فدل اختيار وصف الأمانة

(1) النبوة والأنبياء، ص: 48.

لأنبياء الله عليهم السلام في هذه الآيات مع كثرة صفاتهم وأخلاقهم الكريمة على عظمة هذا الخلق وبالغ منزلته[1].

ولو لم تكن في الأنبياء الأمانة لتغيرت مظاهر الرسالة وتبدلت، ولما اطمأن الإنسان على الوحي المنزل، ولهذا تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: لو كان محمد كاتماً شيئاً مما نزل عليه لكتم هذه الآية الكريمة: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: 37][2].

وقد نشأ رسول الله ﷺ على الصدق والأمانة لا يعرف لهما بديلاً منذ نشأته وترعرعه، وهو لا يكاد يعرف في أوساط قومه إلا الأمين، فيقولون: جاء الأمين وذهب الأمين[3]، حتى حل محل الرضا في قلوبهم وعقولهم، كما دل على ذلك احتكامهم إليه في قصة رفع الحجر الأسود عند بنائهم الكعبة المشرفة بعد تنازعهم في استحقاق شرف رفعه ووضعه في محله، حتى كادوا يقتتلون لولا اتفاقهم على تحكيم أول داخل يدخل المسجد الحرام فكان ذلك الداخل هو محمد ﷺ المرضي لديهم أجمعين: «فلما رأوه قالوا: هذا الأمين رضينا هذا محمد، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر قال ﷺ: هلم إلي ثوباً، فأتي به، فأخذ الركن فوضعه فيه بيده الطاهرة، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعاً ففعلوا، حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده ثم بنى

---

(1) أخلاق النبي ﷺ (2/ 536).

(2) البخاري، كتاب التوحيد 22.

(3) سيرة ابن هشام (1/ 207) مع الروض الأنف.

عليه، قال ابن هشام: وكانت قريش تسمي رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه الوحي: الأمين[1].

وهكذا كان خلق الأمانة سبباً لترشيح هذا الشاب اليتيم لحل فتنة كادت تشتعل بين بطون قريش فتودي بحياة كثير منهم لولا أن الحكمة العظيمة من صاحب الأمانة العظيمة أطفأتها، وما كان لهذه الحكمة أن تبرز لو لم يكن خلق الأمانة قد مهد الطريق أمامها، مما جعلهم يرضون بحكمه دون أن يتسرب إليهم شك في محاباة أو مداهنة فئة على أخرى، لعلمهم بعظيم أمانته وثقتهم به[2].

- بل لقد جعلتهم ثقتهم الكبيرة بأمانته ﷺ ينقلون إلى بيته أموالهم ونفائس مدخراتهم لتكون وديعة عنده فكان ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده، لما يعلم من صدقه وأمانته، ولم يزل ذلك دأبهم حتى بعد معاداته بسبب دعوته لهم إلى الإيمان بالله تعالى وترك عبادة الأوثان لا يختلجهم شك في أمانته، وهم له ﷺ معادون، كما دل على ذلك تركه علي بن أبي طالب رضي الله عنه في مكة بعد هجرته عليه الصلاة والسلام، ليرد ودائع الناس التي كانت عنده للناس، حتى إذا فرغ منها لحق برسول الله ﷺ[3].

الشهادة لرسول الله ﷺ بالأمانة: ولقد شهد له رسول الله ﷺ بالأمانة الأعداء والأصدقاء على حد سواء وذلك دليل على شيوع

---

(1) سيرة ابن هشام (1/ 28) مع الروض الأنف.

(2) أخلاق النبي في القرآن والسنة (2/ 239).

(3) سيرة ابن هشام (2/ 237) مع الروض الأنف.

هذا الخلق فيه، وتسليم الكل له به.

- فأبو سفيان زعيم مكة لما كان قبل إسلامه أمام هرقل ملك الروم، لم يستطع أن يخفي هذا الخلق العظيم وهو الحريص على أن يغمطه حقه أو يطعن فيه بدافع العداء له حينذاك، ولكن لما سأله عن ماذا يأمر النبي ﷺ أجابه أبو سفيان بأنه: يأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة[1].

- وأما الأصدقاء: فمنه ما قالته خديجة رضي الله عنها له عليه الصلاة والسلام عند ابتداء تنزل الوحي:... فوالله إنك لتؤدي الأمانة وتصل الرحم وتصدق الحديث[2].

- وما قاله جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه عن قصته مع النجاشي ملك الحبشة رضي الله عنه وذلك حين سأله عن الدين الذي اعتنقوه، فكان من إجابته له قوله رضي الله عنه: «حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه...»[3].

ولا غرو في أن يكون النبي ﷺ بتلك المثابة من الأمانة، لأن الله تعالى قد أراد منه أن يكون خاتم أنبيائه ورسله إلى الخلق كافة، ولا يقوم بذلك إلا أمين كامل الأمانة، ينال ثقة الناس فيستجيبون له ويؤمنون به ولقد تمثل خلق الأمانة فيه ﷺ بكل معانيها بعد بعثته كتمثله فيه قبل ذلك بل بأوضح من ذلك وأجلّ، فلقد ائتمنه الله

---

(1) البخاري، ك الشهادات (3/ 236).

(2) متفق عليه، الروض الأنف (1/ 274).

(3) السيرة النبوية الصحيحة، للعمري د. أكرم (1/ 174)، سيرة ابن هشام مع الروض الأنف (2/ 87).

تعالى على تبليغ شرعه وسياسة خلقه، فقام بذلك حق قيام حتى رضي الله عنه وعن بلاغه المبين، وشهد له بأنه أدى الأمانة، وبلغ الرسالة كما وصلت إليه حتى تم الدين، وذلك حين قال سبحانه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: 3](1).

7 - السلامة من العيوب المنفرة أو ما يخل بأداء رسالتهم:

وهذه الصفة من خصائص الأنبياء والرسل الكرام، فإنه لما كانت مهمة الرسل، عليهم الصلاة والسلام، تستدعي مخالطة الناس والاجتماع بهم لدعوتهم وإرشادهم وقيادتهم وسياستهم فلا يمكن أن تكون فيهم عيوب خلقية أو خُلقية، تنفر الناس من الاجتماع بهم، أو اتباعهم والسماع لدعوتهم، كما أن الأمراض المنفرة كالبرص والجذام والتشويه الجسدي لا يكون في أحد الأنبياء، فهم وإن كانوا من البشر، تصيبهم العوارض التي تصيب البشر، إلا أن الله عزوجل قد صانهم من العيوب المنفرة، وسلمهم من الأمراض الشائنة، التي تجعل النفوس تنفر منهم، وما يحكى عن أيوب عليه السلام، من أنه مرض واشتد به المرض حتى تعفن جسده وأصبح الدود يخرج من بدنه، حتى كرهته زوجته، فإن هذا من الأباطيل والأكاذيب التي نقلت عن الإسرائيليات ولا يصح تصديقها أو الاعتقاد بها، لأنها تتنافى مع صفات الأنبياء، ولم يذكر لنا القرآن الكريم شيئاً من هذا، وإنما الذي ذكره أنه قد أصابه الضر في بدنه فدعا ربه فكشف عنه ما أصابه من كرب وبلاء، قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ

---

(1) أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة (2/ 541).

إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء: 83 - 84].

وظاهر من الآية الكريمة أن الضر الذي أصابه كان في جسمه وأهله، وهذا النوع من الضر يلحق البشر ويلحق الأنبياء، فإن المرض يعتري الأنبياء كما يعتريهم الموت، وليس في ذلك شيء ينقص من قدرهم، أو يزري بمقامهم وكما يستحيل على الأنبياء الأمراض المنفرة، يستحيل الجنون والإغماء الطويل، لأن ذلك يخل بقيامهم بأعمال الرسالة[1].

8 - العصمة:

الرسل معصومون فيما يبلغون عن الله، فهم لا يخطئون في التبليغ عن الله، ولا يخطئون في تنفيذ ما أوحى الله به إليهم عصمهم الله من الخطأ في هذه وتلك، وذلك من خصوصياتهم.

أ - لأن الأمر لا يستقيم إذا أخطأ الرسول في التبليغ عن الله، إذ ليس لذلك إلا إحدى نتيجتين ـ كلتاهما خارجة عن النفور ـ: إما أن يسكت الوحي عن تصحيح الخطأ، ومعنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يبلغ الناس أمراً معيناً ثم رضي ﷺ أن يبالغ عنه غير ذلك الأمر وهذا لا يجوز في حق الله تبارك تعالى، وإما أن يتنزل الوحي بالتصحيح فيعود الرسول فيقول للناس: إن الله أمرني أن أبلغكم كذا وكذا ولكني أخطأت في التبليغ وإليكم الآن تصحيح

---

(1) عقيدة التوحيد في الكتاب والسنة، ص: 242.

البلاغ وينتج عن ذلك لا محالة أن يفقد الناس الثقة فيما يبلغهم إياه الرسول عن ربه لأن احتمال الخطأ في التبليغ قائم في أذهانهم.

وكل هذين الأمرين خارج عن التصور لأنه يتنافى مع الحق الذي يتنزل به الوحي مع التوقير والتعظيم اللازمين لكلام الله سبحانه وتعالى، مع وجوب الطاعة للرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

ب - ولا يستقيم الأمر كذلك إذا أخطأ الرسول في تنفيذ ما أوحي الله به إليه، لأن القدوة تنتفي يومئذ، ويضطرب الأمر في نفوس الأتباع الذين اتبعوا الرسل فلا يعرفون أي طريق يسلكون، وفضلاً عن ذلك تذهب جدية الأمر من مشاعرهم، فالمفروض في الشخص المؤمن أن يجتهد في اتباع ما أنزل الله قدر جهده ليكون أقرب إلى الصواب، فإذا كان القدوة أمامه - وهو الرسول - يخطئ في التنفيذ فسوف يحس هو أنه في حِلّ من أن يخطئ وليس عليه أن يتحرى الصواب، فهو ليس أفضل من الرسول المؤيد بالوحي، وعندئذ ينفرط عقد الأمر ولا يعود للدين ما أراده الله من تعظيم في نفوس المؤمنين[1].

- إن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم قد اصطفاهم الله واختارهم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: 33].

ونزههم عن السيئات وعصمهم من المعاصي صغيرها وكبيرها ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ [آل عمران: 181].

(1) ركائز الإيمان، ص: 279.

وحلّاهم بالأخلاق العظيمة من الصدق والتفاني في الحق فاجتباهم وعلمهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: 6].

فالأنبياء يتسمون بالطهر والنزاهة والقداسة وهم النموذج الحي والصورة المثلى للكمال الإنساني، ومن ثم فهم معصومون عن الآثام ومنزهون عن الوقوع في المعاصي فلا يرتكبون محرماً ولا يقصرون في أداء واجب ولا يتصفون إلا بالأخلاق العظيمة التي يكونون بموجبها القدوة الحسنة والمثل الأعلى، وقد زكاهم الله سبحانه وتعالى وأدبهم وهذبهم وعلمهم، قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ﴾ [الأنعام: 90].

قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: 90].

فيتضح من هذه الآيات مدى الكمال الإنساني الذي أفاضه الله على أنبيائه ورسله، ولو لم يكونوا كذلك، لسقطت هيبتهم في القلوب ولصغر شأنهم في أعين الناس، وبذلك تضيع الثقة فيهم، فلا ينقاد لهم أحد ولذهبت الحكمة من إرسالهم ليكونوا قادة الخلق إلى الحق(1).

- حقيقة العصمة:

العصمة في اللغة المنع، وورد في لسان العرب: العصمة:

(1) العقيدة الإسلامية، د. أحمد جلي، ص: 233.

المنع، وقال الزجاج في قوله تعالى: ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ﴾ [هود: 43].

أي: يمنعني من الماء والمعنى من تفريق الماء. واعتصم فلان بالله إذا امتنع به، واعتصمت بالله إذا امتنعت بلطفه من المعصية، ومن ذلك أيضاً قول الله تعالى حكاية عن امرأة العزيز: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ﴾ [يوسف: 32].

أما في الاصطلاح: فهي لطف من الله تعالى يحمل النبي على فعل الخير ويزجره عن الشر، مع بقاء الاختيار تحقيقاً للابتلاء، وقيل: هي حفظ الله أنبياءه ورسله من النقائص وتحقيقهم بالكمالات النفسية والنصرة والثبات في الأمور وإنزال السكينة، وقيل: هي ملكة إلٰهية، تمنع الإنسان من فعل المعصية والميل إليها مع القدرة عليها.

وقد ذهب البعض إلى أنها خاصية في نفس الشخص أو في بدنه، يمتنع بسببها صدور الذنب عنه، ومما يضعف هذا الرأي ويدحضه، كما يقول الإيجي: أنه لو كان كذلك لما استحق المدح بذلك، وأيضاً فالإجماع على أنهم مكلفون بترك الذنوب مثابون به، ولو كان الذنب ممتنعاً عنهم لما كان كذلك وأيضاً: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [فصلت: 6]. يدل على مماثلتهم لسائر الناس فيما يرجع إلى البشرية والامتياز بالوحي لا غيره[1].

- العصمة من الذنوب:

وقد اختلف العلماء في عصمة الأنبياء، هل هي قبل البعثة أم

(1) المصدر نفسه، ص: 234، الموقف «الإيجي»، ص: 366.

بعدها؟ وهل تكون العصمة عن الكبائر فقط أم عن الكبائر والصغائر من الذنوب؟

فذهب بعضهم إلى أن العصمة ثابتة لهم قبل النبوة وبعدها، من المكفرات والكبائر، وذلك لأن السلوك الشخصي ـ ولو قبل النبوة ـ يؤثر على مستقبل الدعوة للنبي، فلابد إذاً أن يكون من ذوي السيرة العطرة والصفاء النفسي، حتى لا يكون ثمة مطعن في رسالته ودعوته، واستدلوا على ذلك بأن الله تبارك وتعالى قد اختار أنبياءه من صفوة البشر، ورعاهم منذ الصغر كما قال لموسى عليه السلام: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: 39].

وجعلهم من المصطفين، كما قال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [صٓ: 47]. فلابد إذاً أن يكونوا معصومين قبل النبوة وبعدها، لكن وقع الخلاف في وجوب العصمة لهم من الصغائر[1].

والبحث في هذه المسألة داخل في الأمور الاجتهادية التي لم تنهض لها أدلة قاطعة تقطع دابر الخلاف فيها، وإن كان جمهور أهل السنة والجماعة يميلون إلى القول بامتناع الصغائر في حق الأنبياء خصوصاً بعد البعثة.

وأما الفريق الآخر فقد ذهب إلى أن عصمة الأنبياء والرسل إنما تكون بعد النبوة، وتكون في الصغائر والكبائر معاً، لأن المعاصي تكون بعد ورود الشرع والتكليف به، ولأن البشر ليسوا مأمورين

---

(1) عقيدة التوحيد من الكتاب والسنة، ص: 244.

باتباعهم قبل البعثة، فالاتباع والاقتداء إنما يكون بعد نزول الوحي عليهم، وبعد تشريفهم بحمل الرسالة والأمانة، وأما قبلها فإنما هم كسائر البشر، ومع ذلك فإن سيرتهم تأبى عليهم الوقوع في المعاصي والآثام أو الانحراف في طريق الفاحشة والرذيلة، فإنهم ولو كانوا قبل البعثة غير معصومين، لكنهم محفوظون بالعناية والفطرة.

والصحيح الذي عليه المعول من أقوال العلماء هو أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، معصومون عن المعاصي «الصغائر والكبائر» بعد النبوة باتفاق، وأما قبل النبوة فيحتمل أن تقع منهم بعض المخالفات اليسيرة التي لا تخل بالمروءة ولا تقدح بالكرامة والشرف[1].

- استعظام بعض الباحثين نسبة صغائر الذنوب إلى الأنبياء: مدعين بأن وقوع مثل هذه الذنوب فيه طعن بالرسل والرسالات واحتجوا لذلك بأمرين:

الأول: إن الله أمر باتباع الرسل والتأسي بهم، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21].

وهذا يستلزم أن اعتقادات الرسول وأفعاله وأقواله جميعاً طاعات لا محالة لأنه لو جاز أن يقع من الرسول معصية لحصل تناقض، ولاجتمع في هذه المعصية التي وقعت منه، الأمر باتباعها

(1) المصدر نفسه، ص: 244.

وفعلها من حيث الأمر بالتأسي به، والنهي عن اقترافها من حيث كونها معصية منهي عنها وهذا تناقض، فلا يمكن أن يأمر الله عبداً بشيء في حال أنه ينهاه عنه، وقد تصدق هذه الدعوى، لو بقيت معصية الرسول خافية غير ظاهرة بحيث تختلط علينا الطاعة والمعصية ولكن مما يقرره أهل السنة والقائلون بوقوع الصغائر منهم: أن الرسل لا يقرون على معصية أياً كانت، ومن ثم فإن الوحي ينبههم إلى ما وقع منهم من صغائر الذنوب ويدفعهم إلى التوبة منها.

الأمر الثاني: من قال بعصمة الأنبياء من مثل هذه الذنوب، توهم أن الذنوب تنافي الكمال، وأنها تكون نقصاً وإن تاب المذنب منها، وهو غير صحيح، فإن التوبة تجب ما قبلها، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، ومن ثم فإن صغائر الذنوب لا ينافي الكمال ولا يتوجه إلى صاحبها اللوم، بل إن العبد في كثير من الأحيان يكون بعد توبته من معصية خيراً منه قبل وقوع المعصية، وذلك لما يشعر به من الندم والخوف والخشية ولما يقبل عليه من الاستغفار والدعاء، والعمل الصالح رجاء أن تمحو الحسنات السيئات، كما هو معلوم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: 222].

وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: 70].

وأخيراً: فإن مثل هذه الصغائر لا تنقص من مكانة الرسل، ولا تقدح في عصمة الأنبياء، بل هي أقرب لتوكيد بشريتهم، فهم بشر عرضة للخطأ في التصرفات، والاجتهادات الشخصية، ولكنهم معصومون فيما يتعلق بالوحي تلقيناً وتبليغاً وهذا يجعلهم أهلاً للقدوة والأسوة، فلو أصبحوا نوعاً آخر من البشر لا تجري عليهم الهنات والهفوات البشرية، لصعبت القدوة بهم، وقال الناس: هؤلاء الرسل ليسوا مثلنا في أي شيء فكيف نقتدي بهم[1]؟

ومعلوم أنه لم يقع ذنب من نبي إلا وقد سارع إلى التوبة والاستغفار، يدلنا على هذا أن القرآن لم يذكر ذنوب الأنبياء إلا مقرونة بالتوبة والاستغفار، فآدم وزوجه عصيا فبادرا بالتوبة قائلين: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23].

وما كادت ضربة موسى عليه السلام تسقط القبطي قتيلاً حتى سارع طالباً الغفران والرحمة: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾ [القصص: 16].

وداود ما كاد يشعر بخطيئته حتى خرّ راكعاً وأناب: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: 24][2]، وذلك حين حكم لأحد الخصمين قبل أن يستمع لقول الخصم الآخر، قال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ

(1) العقيدة الإسلامية، ص: 238.

(2) الرسل والرسالات، للأشقر، ص: 111.

إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾﴾ [صٓ: 21-24] [1].

9 - شبهات حول عصمة الأنبياء:

ما ورد في القرآن الكريم من نصوص تثبت لبعضهم بعض المخالفات وتنسب إلى بعضهم الآخر الذنب والمعصية، كآدم ونوح وموسى عليهم السلام، وغيرهم من الأنبياء والمرسلين، كما في قوله تعالى في حق آدم عليه السلام: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: 121].

وقوله سبحانه في حق نوح عليه السلام: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: 46].

وقوله جل وعلا في حق سيد المرسلين: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: 2].

فالجواب على ذلك أن هذه النصوص محمولة على بعض الوجوه الآتية:

- أنها ليست معصية وإنما فعل خلاف الأولى.

- أنها ليست معصية وإنما هي خطأ في الاجتهاد، والخطأ في الاجتهاد لا يتنافى مع العصمة، لأن المعصية هي ارتكاب المحرم عمداً والخطأ هو إبداء الرأي في أمر يخالف الحقيقة الموجودة في

---

(1) ركائز الإيمان، ص: 279.

علم الله تعالى، أو هو تصرف على وجه يكون له وجه آخر أصح.

- على فرض أنها مخالفة ومعصية فإنها قد وقعت قبل النبوة[1].

وإليك شيء من الإيضاح:

أ - آدم عليه السلام:

معصية آدم عليه السلام التي صرح القرآن بها في قوله تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه: 121 - 122].

إنما كانت هذه المخالفة والمعصية قبل النبوة بدليل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾ والاجتباء هو اصطفاء الله بالرسالة، فتكون المعصية قد وقعت من آدم عليه السلام قبل النبوة.

وهناك قول آخر أن «آدم» عليه السلام، إنما أكل من الشجرة ناسياً بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: 115].

وقيل: إن آدم عليه السلام لما نهي عن الأكل من الشجرة بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: 35]. ظن أن المراد عين هذه الشجرة لا جنسها فأكل من شجرة أخرى من جنسها فخالف الأمر، وكل ذلك باجتهاد منه، لا عن سابق تعمد وإصرار على المخالفة.

---

(1) عقيدة التوحيد في الكتاب والسنة، ص: 244، 245.

وأقرب الأقوال في هذا أن نقول: أن آدم أكل من الشجرة ناسياً، والنسيان يرفع الإثم عن الفاعل كما قال ﷺ: رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه[1]، كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: 286].

ولم يكن من آدم تعمد أو عزم منه على المعصية بدليل الآية التي ذكرناها: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ وذلك ما اختاره بعض المفسرين كالقرطبي وابن العربي، أو نقول أن المعصية وقعت منه قبل النبوة وذلك ما اختاره صاحب تفسير المنار، جاء في تفسير المنار: . . . ولنا أن نقول: أن تلك مخالفة صدرت منه قبل أن يدركه عزم النبوة كما قال جل شأنه: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾.

والاتفاق إنما هو على العصمة عن مخالفة الأوامر بعد النبوة وقد يكون الذي وقع من آدم نسياناً، فسمي تفخيماً لأمره عصياناً . . والنسيان والسهو مما لا ينافي العصمة[2].

وابن العربي المالكي «أبو بكر» فقد رجح الأول، وذهب إلى أن المخالفة وقعت من آدم عليه السلام بسبب النسيان، فقد جاء في كتاب أحكام القرآن ما نصه: كم قال في تنزيه الأنبياء عن الذي لا يليق بمنزلتهم مما ينسب الجهلة إليهم ـ من وقوعهم في الذنوب عمداً منهم إليها، واقتحاماً لها مع العلم بها، وحاشا لله ـ فإن الأوساط من المسلمين يتورعون عن ذلك، فكيف بالنبيين، ولكن الباري سبحانه بحكمه النافذة، وقضائه السابق، أسلم آدم إلى المخالفة،

(1) النبوة والأنبياء، ص: 71.

(2) تفسير المنار (1/ 380).

فوقع فيها متعمداً ناسياً فقيل في تعمده: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ وقيل في بيان عذره: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: 115]. ونظيرها: أن يخلف الرجل لا يدخل داراً أبداً، فيدخلها متعمداً ناسياً ليمينه، أو مخطئاً في تأويله، فهو عامد ناسي، ومتعلق العمد غير متعلق النسيان.. وجاز للمولى أن يقول في عبده: عصى تحقيراً وتعذيباً، ويعود عليه بفضله فيقول: نسي تنزيهاً، ثم قال: ولا يجوز لأحد منا اليوم أن يخبر بذلك «أي بعصيان آدم» إلا إذا ذكرناه في أثناء قوله تعالى عنه، أو قول نبيه، فأما أن يبتدئ ذلك من قبل نفسه، فليس بجائز لنا في آبائنا الأدنين المماثلين لنا، فكيف في أبينا الأقدم الأعظم الأكرم، النبي المقدم، الذي عذره الله، وتاب عليه وغفر له[1].

ومن خلال أقوال العلماء والمفسرين أن آدم عليه السلام لم يتعمد مخالفة أمر الله عز وجل، وإنما أكل من الشجرة متأولاً، بطريق الاجتهاد، أو ناسياً لأمر الله تبارك وتعالى فعاتبه ربه بإخراجه من الجنة وإنزاله إلى الأرض وذلك لحكمة إلٰهية سابقة، فلا يجوز لنا أن نرميه بالعصيان، مع أن ما وقع منه لم يكن إلا بسبب النسيان، ولا أن نسيء الأدب ولا سيما بعد أن نزل القرآن بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: 122][2].

إن آدم عليه السلام أكل من الشجرة ناسياً، ولم يكن عازماً ولا عامداً ولا قاصداً، فمعنى ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾: لم نجد له قصداً

---

(1) النبوة والأنبياء، ص: 72، أحكام القرآن لابن العربي (3/ 1249).
(2) النبوة والأنبياء، ص: 73.

ولا تعميماً على الأكل من الشجرة ولم يعزم على الأكل، ولم يتعمد المخالفة، ولم يصر على ارتكاب المحظور، لم نجد له عزماً على المخالفة، لأنه أكل من الشجرة ناسياً والنسيان ينفي عنه القصد والتعمد، وفي الآية ـ على هذا الفهم والتفسير ـ توجيه لمعصية آدم في أكله من الشجرة، بأنه كان في حالة نسيان منه تعهد الله، وعدم تذكره، ولو كان ذاكراً لعهد الله لما أكل من الشجرة وهذا النسيان نفى العزم والتعمد والتصميم والإصرار وكأن جملة ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ توجيه لأكل آدم من الشجرة، وتحليل لذلك الفعل، سيق ليكون بمثابة اعتذار له وشهادة له بأنه لم يتعمد ولم يقصد ولم يعزم على المخالفة.

ولما تذكر آدم عهد الله بعد الأكل ـ كان ذلك بعد بُدُو السوءات ـ عرف أنه خالف عهد الله وارتكب المحظور وأنه بذلك عصى، فسارع بالتوبة والإنابة والاستغفار، وطلب من الله أن يغفر له، فتاب الله عليه وغفر له وقد انطبق على أبي البشر عليه السلام قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 201].

فمجرد أن تذكر آدم، تاب إلى الله، فتاب الله عليه ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 37][1].

ب - نوح عليه السلام:

وأما نوح عليه السلام، فما وقع منه فهو أنه سأل الله عن هلاك ابنه

(1) مواقف الأنبياء في القرآن، تحليل وتوجيه د. صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص: 49 - 50.

مع من هلكوا في الطوفان، مع وعد الله بنجاته ونجاة أهله، فقد بيّن القرآن الكريم أن الله تعالى أوصاه أن يحمل أهله والمؤمنين في السفينة.

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ [هود: 40].

ولهذا قال نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: 45 - 47]

فلم يكن لنوح عليه السلام، علم بأن نسب ابنه إليه قد انتفى بكفره وإعراضه عن دعوة الله، فعلّمه الله تعالى أن الصلة الدينية والنسب الروحي أقوى من صلة الدم، فإذا انقطعت هذه الصلة ذهبت بصلة النسب والدم، فقال له معلماً إياه: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ معللاً ذلك بأن عمله عمل غير صالح وبذلك ينتفي نسبه من أبيه، فلا يكون من أهله الذين وعدوا بالنجاة[1].

وعللّ نفي كونه من أهله الحقيقيين لكفره بقوله بعد ذلك: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ والعجيب في الجملة ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ أنه حوّل الشخص نفسه إلى رُكام من العمل غير الصالح، تم نقل الجملة: إنه عمل عملاً غير صالح ولكنها قالت الجملة: إنه عمل

(1) عقيدة التوحيد من الكتاب والسنة، ص: 245.

غير صالح، وفرق بعيد بين الجملتين وما أثبته نوح عليه السلام عن ابنه أنه من أهله، أراد به الصلة النسلية النسبية بينهما، وما نفاه الله عن ابنه، إنه ليس من أهله، أراد به الصلة الإيمانية الاعتقادية فيما أنه ليس من دينه فقد انقطعت الصلة بينهما، رغم أنه ابنه من صلبة نسبه، وقد مات كافراً وعرف نوح حقيقة نهاية ابنه وقد عاتب الله نوحاً عليه السلام عتاباً شديداً على سؤاله ولذلك قال له: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

وسارع نوح عليه السلام إلى الاعتذار والاستغفار واللجوء إلى الله، قال تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: 47].

ولم يكن نوح عليه السلام معترضاً على حكم الله في ابنه، ولما عرف الحقيقة التزم بها واستغفر ربه وأناب، وعاتبه الله لأنه فعل خلاف الأولى، فرغم أنه لم يخطئ في سؤاله إلا أنه كان الأولى والأجدر به أن لا يسأل، وأن يعرف الأمر بدون سؤال والله يريد من رسوله عليه الصلاة والسلام أن يكون فعله دائماً وفق الأولى والأفضل والأكمل والأحسن والله بعتابه له يرشده إلى ما هو أولى وأفضل رغم أن فعله صواب[1].

ج - إبراهيم عليه السلام:

وأما ما ذكره عن إبراهيم عليه السلام، أنه كان شاكاً في الله أول مرة، متأثراً ببيئة قومه في عبادة الكواكب، فليس بصحيح، بل إنه نشأ مؤمناً بالله منذ صغره، وما كان منه من قوله للكواكب: هذا

(1) مواقف الأنبياء في القرآن، د. صلاح الخالدي، ص: 76.

ربي وللقمر وللشمس كذلك، فإنما هو من قبيل التسليم الجدلي في مقام الاستدلال على وجود الله لإقامة الحجة على قومه، بحيث يتنزل معهم إلى مستوى إدراكهم وفهمهم ويتدرج معهم حسب اعتقادهم، ليبطل عقيدتهم في عبادة هذه الآلهة المزعومة بالمنطق السليم وبالحجة والبرهان، ولهذا امتدح الله عَزَّوَجَلَّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ على الأسلوب الذي اتبعه في الاستدلال، وإليك هذه الآيات، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: 76-79].

فهذه الأقوال من إبراهيم الخليل لم تكن شكاً في الله، ولم تكن جهلاً بالخالق جل وعلا.. وإنما كانت من أجل إقامة الحجة على ضلال قومه، عن طريق البرهان والاستدلال وإفحامهم بأعظم الحجج الدامغة[1].

فمن ظن بإبراهيم الشك، أو اعتقد أنه عبد الشمس أو الكواكب، فقد جانب الحق، وأخطأ الفهم وجهل صفات الأنبياء والمرسلين، وكيف يكون والله جل جلاله قد أعطاه العقل وكمال الرشد قبل ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: 51].

(1) النبوة والأنبياء، ص: 77.

وقد أطلع الله عز وجل إبراهيم عليه السلام على ملكوت السموات والأرض، وأخبرنا بأنه كان من المؤمنين الموحدين الكاملين في الإيمان واليقين، وأن الله تعالى قد وهبه وأعطاه الحجة الدامغة، التي تقصم ظهر كل معاند ومكابر، وأنه في مقام الاستدلال وإقامة البرهان على وجود الله الواحد الأحد، ما كان يغلبه أحد، استمع إلى الآيات الكريمة، كيف أن الله عز وجل يسوق البراهين على كمال يقينه، قال جل ثناؤه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنعام: 74 - 75].

فالله عز وجل أعطى إبراهيم الحجج المقنعة والبراهين الساطعة التي بها قام الدليل على وجود الصانع الحكيم فهو يجادل أباه بقوله: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ ثم يصفه قومه بالضلالة في عبادة من لا يسمع، ولا يبصر ولا يغني عن صاحبه شيئاً، فيقول: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

ثم يأتي البرهان على كمال يقين إبراهيم بشهادة الله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾.

والآيات التي جاءت بعدها إنما هي في مقام الاستدلال على وجود الله، وفي تقرير الحجة على قومه، بحيث يتنزل معهم إلى مستوى إدراكهم وفهمهم، ويتدرج معهم على حسب اعتقادهم، فيقول عن النجم هذا ربي، ثم عن القمر ثم الشمس، ليبطل عقيدتهم في عبادة هذه الآلهة المزعومة بالمنطق السليم، وبالحجة والبرهان، ولهذا ختم الله عز وجل هذه القصة بقوله جلّ وعلا: ﴿وَتِلْكَ

حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: 83][1].

- وأما النص الثاني قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: 260] [2].

فإبراهيم الخليل لم يكن شاكاً في ربه أو في قدرته تعالى وإنما سأل عن الكيفية ولم يسأل عن الماهية، فلم يقل: هل تقدر يا رب أن تحيي الموتى، والسؤال عن الكيفية إنما هو بدافع الشوق والتطلع لرؤية أسرار الصنعة الإلٰهية[3].

إنه التشوق إلى ملابسة سر الصنعة الإلٰهية، وحين يجيء هذا التشوق من إبراهيم الأواه، الحليم، المؤمن، الراضي، الخاشع، العابد، القريب، الخليل، حين يجيء هذا التشوق من إبراهيم فإنه يكشف عما يختلج أحياناً من الشوق والتطلع لرؤية أسرار الصنعة الإلٰهية في قلوب أقرب المقربين، إنه تشوق لا يتعلق بوجود الإيمان وثباته وكماله واستقراره، وليس طلباً للبرهان أو تقوية للإيمان إنما هو أمر آخر له مذاق آخر، إنه أمر الشوق الروحي إلى ملابسة السر الإلٰهي، في أثناء وقوعه العملي ومذاق هذه التجربة في الكيان البشري مذاق آخر غير مذاق الإيمان بالغيب، ولو كان هو إبراهيم

(1) النبوة والأنبياء، ص: 74، 75.
(2) ضمّهن إليك.
(3) عقيدة التوحيد في الكتاب والسنة، ص: 246.

الخليل الذي يقول لربه ويقول له ربه، وليس وراء هذا إيمان ولا برهان للإيمان، ولكنه أراد أن يرى يد القدرة وهي تعمل، ليحصل على مذاق هذه الملابسة فيستروح بها، ويتنفس في جوها، ويعيش معها، وهي أمر آخر غير الإيمان الذي ليس بعده إيمان[1].

كان إبراهيم عليه السلام إنساناً لا يعرف حداً للشبع من المعرفة الإلٰهية، كان دائم الطلب: هل من مزيد؟ أعطني يا رب من معرفتك المزيد، لذا ففي حديث يرويه البخاري ومسلم يقول: يقول الرسول ﷺ: «**نحن أحق بالشك من إبراهيم**»[2]، أي بما أننا لا نشك في إحياء الموتى، فمن الأولى عدم وجود الشك عند إبراهيم[3].

- التعريضات الثلاثة لإبراهيم عليه السلام:

أمّا ما ورد في السنة النبوية مما يشير ظاهره إلى عدم «العصمة» بحق إبراهيم عليه السلام وذلك في قوله ﷺ: «**لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات: ثنتين منهن في ذات الله، قوله:** ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: 89] **وقوله:** ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: 63]. **وقال بينما هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة، فقيل له: إن هٰهنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه فسأله عنها: من هذه؟ قال هي أختي. فأتى فقال لها: إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختي، فإنك أختي في**

---

(1) في ظلال القرآن (1/ 301 - 302) سيد قطب.
(2) البخاري 3372.
(3) العصمة النبوية، محمد فتح الله كولن، ص: 49.

الإسلام، ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، فأرسل إليها فأتى بها، وقام إبراهيم يصلي، فلمّا دخلتُ عليه ذهب يتناولها بيده، فأخذ حتى برجله، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت الله فأطلق ثم تناولها الثانية، فأخذ مثلها أو أشد فقال: أدعي الله ولا أضرك، فدعت فأُطلق، فدعا بعض حجبته فقال: إنك لم تأتني بإنسان إنما أتيتني بشيطان، فأخدمها هاجر. فأتته وهو قائم يصلي فأومأ بيده: مهيم؟ قالت: ردّ الله كيد الكافر في نحره وأخدم هاجر..»، قال أبو هريرة: تلك أُمكم يا بني ماء السماء[1].

فهذا الحديث الشريف ليس فيه ما يدل على عدم العصمة، لأن النبي ﷺ لم يقصد بهذه الكلمات الثلاثة حقيقة معنى الكذب، إنما قصد أن إبراهيم الخليل أخبر بإخبارات توهم الكذب في الصورة وهي ليس بكذب في الحقيقة والواقع[2]، وهذه هي التعريضات الثلاثة لإبراهيم عليه السلام وسنتناولها جميعاً لنرى الوجه الحقيقي لعصمته بعد معرفة ماهية الحوادث.

ـــ إني سقيم:

يشرح القرآن الكريم الحادثة الأولى فيقول: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الصافات: 83–90].

(1) البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء رقم 3358.

(2) النبوة والأنبياء، ص: 80.

كان إبراهيم عليه السلام يقصد من ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ الإشارة إلى السبب الرئيس لعدم شعوره بالراحة، كانت الأصنام مصدر حزنه وسقمه، وشعر بأنه ما لم يهدم هذه الأصنام ويكسرها فلن يجد طعماً للراحة، وعندما قال لمن حوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ظنوه مريضاً من الناحية الجسدية فتولوا عنه، إذ كانوا يصرون على اصطحابه معهم لمشاركتهم في احتفالهم الديني وما إن خرجوا من عنده حتى أسرع ليحطم الأصنام مبيناً بذلك السبب الحقيقي لسقمه، غير أنه استعمل في كلامه معهم تعريضاً يفهمون منه شيئاً غير مقصوده الحقيقي، ولكنه لم ينحرف في كلامه هذا إلى الكذب أبداً، كل ما هنالك أن قومه لم يفهموا قصده الحقيقي، وليس هذا بغريب عن قومه الذين صموا آذانهم عن الاستماع إلى الحق[1].

ـ بل فعله كبيرهم هذا:

والتعريف الثاني هو: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا
بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ
﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى
ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ
رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾
وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا
كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ
لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟
فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا

(1) العصمة النبوية، محمد فتح الله كولن، ص: 52.

بِئَالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنبياء: 51-63].

وقوله: ﴿بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا﴾ لم يكن في الحقيقة كذباً وإنما هو نوع من الحجة الدامغة، والبرهان الساطع أراد أن يقيمه إبراهيم على قومه، فحين سألوه من حطم هذه الأصنام؟ أشار إلى الصنم الأكبر، سخرياً وتهكماً بهم وبهذه الأصنام، ثم لما رآهم متعجبين من كلامه أجابهم بالجواب المسكت ﴿فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: 63][1].

ـ إنك أختي:

لا توجد في الحادثة الثالثة ذرة من الكذب، بل لا يمكن حتى إطلاق كلمة «التعريض» على كلامه فهو كلام صحيح صادق تمام الصدق، إذ أوصى زوجته سارة أن تقول للنمرود ولرجاله إن سألوها «إنني أخته» ولو سألوا إبراهيم عليه السلام عنها لقال: إنها أختي، ذلك لأن إبراهيم عليه السلام لو قال إنها زوجته لامتدت أيديهم بالأذى والسوء إليها، ولوقع هو وزوجته في ضيق شديد، وربما اضطر إلى ترك تلك البلاد والرحيل عنها، غير أن ما قاله إبراهيم عليه السلام مطابق للحقيقة، ذلك لأن جميع المؤمنين إخوة كما يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ [الحجرات: 10].

والإيمان هو الرباط الأول الذي يربط الإنسان بالآخرين واختلاف الزمان والمكان لا يكون حائلاً بين أخوة الإيمان

(1) النبوة والأنبياء، ص: 80.

والمؤمنون والمؤمنات إخوة فيما بينهم دون أي تفرقة بين ذكر وأنثى، أما نقاط التقارب الأخرى فتأتي بعد هذه الأخوة، فإن قام مؤمن بتطليق زوجته انقطعت رابطة الزوجية فيما بينهما، ولكن رابطة الإيمان تبقى موجودة، فإبراهيم عليه السلام أشار إلى هذه العلاقة وإلى هذه الرابطة وقال عن زوجته إنها أخته وهذه الكلمة تفيد عين الحقيقة[1].

ـــ استغفاره لأبيه:

لمّا أصر والد إبراهيم عليه السلام على كفره، وردّ عليه دعوته بغلظة وفظاظة، ردّ عليه إبراهيم بحلم وهدوء، ووعده أن يستغفر الله له، قال تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ [مريم: 46 - 47].

واستغفاره لأبيه مبني على إيمانه بالله أي: إن آمن أبوه طلب من الله أن يغفر له، أما إن لم يؤمن، وأصرّ على كفره، فلن يغفر الله له، لأن إبراهيم عليه السلام يعلمُ أن الله لا يغفر لإنسان كافر بالله، مات على كفره وشركه، فهذه ـ مسألة اعتقادية ـ جاء بها جميع الرسل، ويعلمها جميع الرسل، إذن لا يُلام إبراهيم على استغفاره لأبيه، لأن استغفاره له مشروط بالإيمان، كأنه باستغفاره يقول: اللّهم إن آمن أبي فاغفر له، وقد أخبرنا الله عن استغفاره لأبيه في قوله تعالى: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: 86].

---

(1) العصمة، ص: 55.

ولكن أباه لم يؤمن، وأصرّ على كفره، عند ذلك لم يستمر إبراهيم عليه السلام في استغفاره له، وإنما تبرأ منه وقطع صلته به وآيات القرآن في هذه صريحة، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: 113 - 114].

وحتى لا يستشهد أحدهم بفعل إبراهيم عليه السلام، وحتى لا يستغفر لقريبه الكافر مقتدياً بإبراهيم في استغفاره لأبيه، فقد وضحت الآية ملابسات ذلك: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾.

والمعنى: استغفر إبراهيم عليه السلام لأبيه بسبب الوعد الذي وعده إياه، حيث وعد أباه أن يستغفر له وذلك في قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: 47].

وعندما تبين له حقيقة موقف أبيه تبرأ منه: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ لقد تبرأ إبراهيم من أبيه في النهاية، وأظهر عداوته له ولقومه[1].

د - يوسف عليه السلام:

وفي قصة يوسف الصديق عليه السلام، التي قصها علينا القرآن الكريم، صور مشرقة عن نزاهة هذا النبي الكريم وبراءته وعصمته،

---

(1) مواقف الأنبياء في القرآن، صلاح الخالدي، ص: 106.

مع ما أعطاه الله عَزَّوَجَلَّ من الجمال، وما كساه من البهاء والجلال، حتى افتتنت به امرأة العزيز - عزيز مصر - فصنعت ما صنعت بقصد إغوائه وإغرائه، ولكنه عَلَيْهِ السَّلَامُ كان أصلب من الحديد وأقوى من الجبال، فلم تؤثر فيه تلك العواصف الهوجاء، والمكائد التي اصطنعها النسوة مع امرأة العزيز، والتي قص علينا القرآن الكريم طرفاً منها، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [يوسف: 30 - 31].

ومما تجدر الإشارة إليه أن بعض الناس ممن ليس لهم قدم راسخ في العلم قد اغتروا ببعض روايات إسرائيلية باطلة مكذوبة، لا يصح أن تروى أو تذكر في كتب التفسير وقد نبه عليها العلماء الأثبات والحفاظ الثقات، لأنها تصادم النصوص القرآنية الكريمة وتتنافى مع «عصمة الأنبياء» الأطهار(1).

وهذا النص الذي فسر تفسيراً خاطئاً ولا يتفق مع عصمة الأنبياء ولا ينسجم مع النصوص القرآنية الأخرى.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: 24].

فقد فسروا الهم من يوسف على أنه مطاوعة منه لامرأة العزيز،

(1) النبوة والأنبياء، ص: 81.

وعزم على قربانها، وفسّروا البرهان على أنه الصورة التي ظهر بها والده يعقوب عليه السلام وهو يعض على أنامله حتى ترك يوسف ذلك العمل القبيح. وهذا التأويل باطل ولا يجوز بحال من الأحوال وقد نبه كثير من المفسرين إلى أمثال هذه الإسرائيليات، وبينوا بطلانها لئلا ينخدع بعض المسلمين بها فيظنوا أنها أخبار حقيقية موثوقة.

إن الآية الكريمة لها مفهوم دقيق ينبغي ألا يغفل عنه واسع العلم، دقيق البصر، ذلك أن الهم الذي وقع من امرأة العزيز كان هم سوء، كانت تدعوه إلى نفسها من أجل عمل الفاحشة، ومن أجل ذلك راودته عن نفسها بعد أن أحكمت إغلاق الأبواب وحاصرته في الدار كما قال تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: 23].

أما الهم الذي كان من يوسف الصديق عليه السلام فلم يكن هم سوء ولم يكن عزماً على الخيانة أو فاحشة وما خطر بباله عليه السلام شيء مما يتوهمه بعض الجهلاء من إرادة السوء أو عمل الفاحشة، وإنما كان همه أن يدفع العدوان عنه، أن يدفع عنه هذه المكيدة الخبيثة التي دبرتها له سيدته امرأة العزيز ولهذا نجد المقاومة في موقفه والمقاومة العنيفة في حديثه: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ﴾.

فالهم منها غير الهم منه، همت به طلباً، وهم بها دفعاً، كما يقول بعض المفسرين، أو كما قال البعض الآخر أن الهم منها وقع

فعلاً، وأما هم يوسف فكان بالطبع، أي أنه عليه السلام مال إليها بطبيعته الفطرية مع الامتناع عن مفارقة السوء، والإنسان غير مواخذ على ما تشتهيه نفسه أو يميل إليه بطبعه ما لم يعزم على فعل الشيء وهذا ما فسره النسفي حيث قال ﴿هَمَّتْ بِهِۦ﴾ هم عزم ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ هم الطباع مع الامتناع، ويرى بعض المفسرين أن في الآية تقديماً وتأخيراً ويصبح المعنى ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: 24].

المعنى: لولا برهان الله أي عصمته ليوسف لهمَّ بها ولكن عصمة الله تعالى له حالت دون ذلك الهم(1).

ـــ الأدلة على عصمة يوسف عليه السلام:

هناك وجوه عشرة على عصمة يوسف وبراءته عليه السلام من تلك التهمة الشنيعة التي نسبها إليه من لا يعرف قدر النبوة ولا عظمة الرسالة ولا صفات الأنبياء الكرام صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وهي:

الوجه الأول: امتناعه عليه السلام عن مطاوعة امرأة العزيز ووقوفه في وجهها بكل صلابة وعزم: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾.

الوجه الثاني: فراره عليه السلام من امرأة العزيز بعد أن حاصرته وضيقت عليه الخناق، وأرادته على نفسه بالغصب والإكراه ولو كان يوسف همّ بالفاحشة لما فر منها لأن الذي يريد عمل الفاحشة يقدم

(1) النبوة والأنبياء، ص: 84.

ولا يفر قال تعالى: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ [يوسف: 25].

الوجه الثالث: شهادة بعض أقرباء زوجة العزيز ببراءة يوسف حيث أشار بفحص ثوبه لأنه إذا كان هو الطالب لها وهي الممتنعة فإن ثوبه سيشق من أمام، وإن كانت هي الطالبة وهو الممتنع الهارب منها فإن ثوبه سيشق من خلف، قال تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۞ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: 26 - 28].

الوجه الرابع: تفضيله السجن على الفاحشة: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: 33].

وهذا من أعظم البراهين على براءته عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إذ كيف يعقل أن يفضل شخص السجن على شيء يرغبه ويتمناه، ولو أنه استجاب لدعوتها وطاوعها على نفسها لما لبث في السجن بضع سنين بسبب تلك التهمة التي ألحقتها به، فدعوى هم يوسف بامرأة العزيز باطل ظاهر البطلان، يدرك ذلك كل منصف درس تاريخ هذا النبي الكريم وفهم معاني القرآن(1).

الوجه الخامس: ثناء الله عَزَّوَجَلَّ عليه في مواطن عديدة من

(1) النبوة والأنبياء، ص: 85.

السورة كما قال تعالى: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوٓءَ وَالْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: 24]

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتْهُ الَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف: 22 - 23].

فقد أخبر الله تعالى بأنه من المحسنين وأنه من عباده المخلصين الذين اختارهم الله لنبوته، وأخلصهم لطاعته وعبادته، وهل يكون ثناء الله تبارك وتعالى إلا على من صفت نفسه وطهرت سريرته من كل نية سيئة، وكل عمل قبيح، فكان من الأطهار المقربين؟

وقد شهد رسول الله ﷺ له أيضاً بالصلاح والتقى وبالطهارة والاستقامة، قال ﷺ: «**الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم، يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم**»(1)، وكفى بذلك شرفاً وفضلاً.

الوجه السادس: اعتراف امرأة العزيز نفسها بعصمته وعفته أمام جمع من نسوة المدينة، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: 31 - 32].

فهذه شهادة صريحة واضحة على عفة يوسف وبراءته صدرت من نفس امرأة العزيز، التي اتهمته أمام زوجها بعمل الفاحشة ولفظ

(1) البخاري رقم 3382.

«استعصم» يدل على الامتناع البليغ، والتحفظ الشديد، كأنه في عصمة من الأمر وهو يجتهد في الاستزادة منها وهذا بيان على أن يوسف عليه السلام بريء مما فسر به بعض الناس الهم والبرهان.

الوجه السابع: ظهور أمارات البراءة على يوسف عليه السلام بالدلائل الواضحة، والبراهين الساطعة أمام جميع الشاهدين ومع ذلك فقد أقدم عزيز مصر على سجنه إيهاماً للناس وستراً على زوجته، قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [يوسف: 35].

الوجه الثامن: استجابة الله عز وجل لدعوة يوسف حين طلب من ربه أن يصرف عنه كيدهن ومكرهن الخبيث به ولو كان له رغبة في مطاوعة زوجة العزيز لما طلب من الله أن يصرف عنه كيدهن، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يوسف: 34].

الوجه التاسع: عدم قبول يوسف الخروج من السجن حتى تظهر براءته أمام جميع الناس، وذلك يدل على منتهى شهامته وعفته ونزاهته ولولا ذلك لما فضل البقاء في السجن بعد أن مكث فيه سبع أو تسع سنوات ولاقى فيه الشدائد، فلم يقبل الخروج من السجن حتى يقر الجميع ببراءته وتنزه ساحته من تلك التهم الشنيعة: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 50].

الوجه العاشر: وأخيراً الاعتراف الواضح الصريح من النسوة ومن امرأة العزيز التي اتهمته بنفسها، وذلك لا يدع ذرة من شك في

براءة يوسف ونزاهته وعصمته مما نسب إليه، وذلك حين جمع الملك النسوة وسألهن عن يوسف الصديق فأجبنه بجواب صريح قاطع، قال تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [يوسف: 51 - 52][1].

هـ - يونس عليه السلام:

قال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: 87 - 88].

وقد سُمّيَ يونس «ذا النون» كما سُمي «صاحب الحوت» في قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: 48]، لأنه عاش في بطن الحوت فترة وبقي فيها حياً بإذن الله.

واللطيف أن القرآن اعتبرها صحبة بين يونس والحوت! وكأن الحوت عندما ابتلع يونس عليه السلام كان صاحباً مساعداً له، ابتلعه لحرصه وإشفاقه عليه لأنه خاف أن تأكله باقي الحيتان والأسماك، فأنقذه منهم بإبتلاعه بهدف حمايته لا بهدف أكله، ولهذا صارت بينهما صحبة[2].

---

(1) النبوة والأنبياء، ص: 88.

(2) مواقف الأنبياء في القرآن، ص: 349.

وقد أخبرنا الله أن ذا النون عليه السلام ذهب مغاضباً ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾، و«مغاضباً»: اسم فاعل، فعله الماضي رُباعي «غاضب» والألف في الفعل ألف مفاعلة، تدل على المشاركة.

والمشاركة تدل على أن الغضب كان بين الطرفين: الطرف الأول هو يونس عليه السلام، لكن من هو الطرف الثاني؟ ذهب ناقلو الإسرائيليات إلى أن الطرف الثاني هو الله سبحانه، أي: يونس عليه السلام غادر قومه وذهب عنهم مغاضباً لربه، قالت الإسرائيليات: غضب يونس من ربه لأنه لم يوقع العذاب على قومه خلال ثلاثة أيام، مما جعله يبدو أمامهم كاذباً، وغضب الله منه لأنه غادرهم بدون إذن منه وهذا فعل لا يجوز أن يصدر عن مسلم صالح فكيف يصدر عن نبي كريم عليه السلام؟

لقد كانت المغاضبة بين يونس عليه السلام وبين قومه الكافرين: غضب هو منهم لأنهم رفضوا دعوته وأصرّوا على الكفر، وغضبوا هم منه، لأنه أنذرهم العذاب وأخبرهم أنه سيقع بهم بعد ثلاثة أيام[1].

فالمغاضبة كانت لقومه والمعاتبة كانت لعدم الصبر، ولخروجه من بين قومه بغير إذن من الله، ولهذا أمر الله رسوله الكريم أن يصبر على تكذيب المشركين وألا يكون ضيق الصدر، قليل الصبر، كما كان شأن يونس عليه السلام مع قومه حيث ضربه الله تعالى مثلاً فقال عز من قائل: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ

---

(1) مواقف الأنبياء في القرآن، ص: 350.

مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القلم: 48 - 50].

وقوله تعالى: ﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ جواب «لَوْلاَ» ومعلوم أن «لَوْلاَ» في اللغة العربية هي حرف امتناع لوجود أي أنها تفيد امتناع الجواب لوجود الشرط.

ومعنى الآية الكريمة: لولا أن الله أنعم عليه بإجابة دعائه وقبول عذره لنبذ من بطن الحوت «بِالْعَرَاء» أي الفضاء وهو «مَذْمُومٌ» أي معاتب بزلته لكنه رحم فنبذ غير مذموم[1].

وأما معنى قوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ ظن يونس أن الله لن يضيق عليه بإبقائه عند هؤلاء الكفار المنتظرين للعذاب، وسيوجهه إلى قوم آخرين يدعوهم إلى الله.

فالتقدير هنا: التضييق ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ [سبإ: 11] أي: ضيق في الدرع لتكون الفتحة على قدر المسمار.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أرسل لي معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، فقال لي: لقد ضربتني أمواج القرآن. قلت: بماذا؟ قال: في قوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾، أيظن عبد من عبيد الله أن الله لا يقدر عليه، فضلاً عن نبي من الأنبياء؟ قلت له: ليس ذلك من القدرة، إنما ذلك من التقدير: بمعنى التضييق، قال تعالى: ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ أي: ضيق عليه رزقه[2].

(1) النبوة والأنبياء، ص: 91.

(2) مواقف الأنبياء في القرآن، ص: 351، 352.

والذي فعله يونس عليه السلام خلاف الأولى وعمل ما يستحق عليه اللوم من الله ولذلك قال تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ﴾ [الصافات: 142].

وفرق بين اللوم والعقاب: العقاب يكون عن وقوع في ذنب، بترك واجب أو فعل حرام، أما اللوم فإنه يكون عن فعل خلاف الأولى، مع جواز ذلك الفعل، لام الله يونس لأنه فعل خلاف الأولى، وقدّر له أن يمرّ بتلك المحنة الشديدة.

وكانت المحنة الأولى ابتلاء من الله له، والابتلاء لا يكون بسبب الذنوب دائماً فقد يكون بهدف رفع درجات المبتلى عند الله ومن هذا الباب ابتلاء الأنبياء، كما كانت محنة يونس عليه السلام درساً وعبرة للمؤمنين من بعده وأخبرنا الله عنها في القرآن، لنقف عندها متدبرين، ونأخذ منها العبرة والعظة، ونأخذ منها دروساً في العقيدة والإيمان والإقبال على الله، واللجوء إليه والاعتماد عليه عند المحن والمصائب والابتلاءات[1].

- **وصف يونس عليه السلام نفسه بالظلم:**

عندما وجد يونس نفسه في الظلمات أقبل على الله، ذاكراً مسبحاً، داعياً متضرعاً وكان تسبيحه ودعاؤه سبباً لنجاته، قال تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات: 143 - 144].

أي: سبب نجاته أن سبّح الله في بطن الحوت، ولو لم يسبّح

(1) مواقف الأنبياء، ص: 355.

الله لهضمه الحوت، وحوّله إلى غذاء له، قال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: 87-88].

وفي وصف يونس عليه السلام لنفسه بالظلم ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

هذا معناه أن يونس عليه السلام أدرك وهو في بطن الحوت أنه تسرع بالخروج من قومه قبل توجيه الله له، وأن الله عاتب عليه ولامه من أجل ذلك وقدر أن يوقع به هذا البلاء، ويمتحنه بهذه المحنة وعند ذلك انطلق لسانه بأنه كان ظالماً في فعله وتصرفه وخروجه وطلب من الله أن يتجاوز عن ظلمه، وهذا من باب شعوره بالتقصير في حق الله، وحيائه من الله وطلبه تفريج الهم والكرب والضيق، فهذا الاعتراف منه من باب ذكره لله وتوسله إليه[1].

تاسعاً: عصمة النبي ﷺ:

دلت نصوص القرآن والسنة على عصمة نبينا محمد ﷺ في تبليغ شرع الله إلى الخلق وقد عرفت عصمة النبي: لطف من الله تعالى يحمل النبي على فعل الخير ويزجره عن الشر مع بقاء الاختيار تحقيقًا للابتلاء[2].

(1) مواقف الأنبياء، ص: 356 - 357.

(2) نسيم الرياض في شرح الشفا، للقاضي عياض للخفاجي (4/ 39).

1 - فمن القرآن الكريم:

أ - قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: 3 - 4] فالآية نص في عصمة لسانه ﷺ من كل هوى وغرض فهو لا ينطق إلا بما يوحى إليه من ربه ولا يقول إلا ما أمر به فيبلغه إلى الناس كاملاً موفوراً من غير زيادة ولا نقصان وهذه الآية شهادة وتزكية من الله لنبيه ورسوله محمد ﷺ في كل ما بلغه للناس من شرع الله(1).

ب - وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ۝٤٧﴾ [الحاقة: 44 - 47].

فالآيات نصت على أن الله ﷻ لا يؤيد من يكذب عليه بل لابد أن يظهر كذبه وأن ينتقم منه، ولو كان محمد ﷺ من هذا الجنس كما يزعم الكافرون فيما حكاه الله عنهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الشورى: 24] - وحاشاه ﷺ من ذلك - لأنزل الله به العقوبة ما ذكره في هذه الآيات وحيث إن الرسول ﷺ لم يقع له شيء من ذلك فلم يهلكه الله ولم يعذبه، فهو على هذا لم يتقول على الله ما لم يقله ولم يفتر شيئاً من عند نفسه، وبهذا تثبت عصمته في كل ما بلغه عن ربه ﷻ (2).

قال ابن كثير بعد أن فسر هذه الآيات: والمعنى في هذا بل

---

(1) حقوق النبي على أمته (1/ 130).

(2) المصدر نفسه (1/ 131).

هو صادق راشد لأن الله عَزَّوَجَلَّ مقر له ما يبلغه عنه ومؤيد له بالمعجزات الباهرات والدلالات القاطعات[1].

ج - وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء: 73 - 75].

فقد أخبر تعالى عن تأييده لرسوله صلوات الله وسلامه وتثبيته وعصمته وسلامته من شر الأشرار وكيد الفجار وأنه تعالى هو المتولي أمره ونصره، وأنه لا يكله إلى أحد من خلقه بل هو وليه وحافظه وناصره ومؤيده ومظفره، ومظهر دينه على من عاداه وخالفه في مشارق الأرض ومغاربها[2].

2 - من السنة النبوية:

أ - حديث طلحة بن عبيد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وجاء فيه قوله ﷺ: ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به، فإني لن أكذب على الله[3].

ب - حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتني قريش فقالوا:

---

(1) تفسير ابن كثير (4/ 417).
(2) تفسير ابن كثير (3/ 53).
(3) مسلم، كتاب الفضائل (7/ 95).

إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ بشر يتكلم في الغضب والرضا، فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «**كتب فوالذي نفسي بيده ما خرج مني إلا حق**»(1).

ج - حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إني لا أقول إلا حقاً». قال بعض أصحابه: فإنك تداعبنا يا رسول. قال: «**إني لا أقول إلا حقًا**»(2).

3 - عصمته ﷺ قبل مبعثه:

دلت النصوص الثابتة على أن النبي ﷺ معصوم منذ نشأته من الكفر والشرك فلم يعهد عنه ﷺ أنه سجد لصنم أو استلمه أو غير ذلك من أمور الشرك التي كان يفعلها قومه، فقد فطره الله على معرفته والاتجاه إليه وحده وهذا هو المعلوم من سيرته، فمن النصوص التي يستدل بها على هذا الأمر ما يلي:

- حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في

---

(1) مسند أحمد (2/ 162، 192)، المستدرك للحاكم (1/ 104، 105) وصححه ووافقه الذهبي.

(2) مسند (2/ 340، 360)، سنن الترمذي رقم 1990 حديث حسن صحيح.

طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه ـ يعني ظئره[1] - فقالوا: إن محمداً قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون، قال أنس: وقد كنتُ أرى أثر ذلك المخيط في صدره[2].

فالحديث نص على إخراج جبريل لحظ الشيطان منه ﷺ وتطهيره لقلبه فلا يقدر الشيطان على إغوائه إذ لا سبيل له عليه، وهذا دليل على تنزيهه من الشرك منذ صغره ﷺ[3].

والنصوص في مثل هذا كثيرة وقد عني بجمعها من ألّف في دلائل النبوة مثل الحافظ أبي نعيم الأصفهاني، فقد عقد فصلاً في كتابه دلائل النبوة بعنوان: ذكر ما خصه الله عز وجل به من العصمة وحماه من التدين بدين الجاهلية.. وقد أورد تحت هذا العنوان العديد من الأحاديث والشواهد في هذا الشأن[4].

وكذلك فعل البيهقي في دلائل النبوة أيضاً فعقد عنواناً لهذا الموضوع فقال: باب ما جاء في حفظ الله تعالى ورسوله ﷺ في شبيبته عن أقذار الجاهلية ومعائبها لما يريده به من كرامته برسالته حتى يبعث رسولاً[5].

(1) ظئره: أي مرضعته.
(2) مسلم، كتاب الإيمان (1/ 101، 102).
(3) حقوق النبي على أمته (1/ 134).
(4) دلائل النبوة للأصفهاني، ص: 143 - 147.
(5) دلائل النبوة للبيهقي (2/ 30 - 42).

ومثلهما السيوطي في الخصائص الكبرى حيث قال: باب اختصاصه ﷺ بحفظ الله إياه في شبابه عما كان عليه أهل الجاهلية[1].

4 - إزالة ما يوهم عدم إيمان نبينا وضلاله قبل بعثته:

وردت بعض النصوص التي قد يتوهم منها البعض أن رسول الله ﷺ كان على كفر وضلال قبل بعثته، فمن تلك النصوص:

أ - قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: 52].

فقد يتوهم البعض أن هذه الآية تعني انتفاء معرفة النبي ﷺ للإيمان بالكلية قبل بعثته بمعنى أنه لم يكن مؤمناً.

والجواب على ذلك أن هذا الفهم خاطئ لأن الإيمان في قوله: ﴿وَلَا الْإِيمَانُ﴾ مصدر بمعنى المفعول فيكون المراد: أي ما يجب الإيمان به من الفرائض والأحكام الشرعية التي كلف بها علماً وعملاً، فالمنفي هو الإيمان التفصيلي لا الإجمالي، فقد كان النبي ﷺ قبل نزول الوحي إليه مبغضاً للشرك وعبادة الأصنام ومتجهاً إلى الله وحده، فلما نزلت عليه الفرائض والأحكام الشرعية التي لم يكن يدري بها قبل الوحي آمن بها وطبقها فهذا هو المعنى الصحيح للآية، كما ذكر ذلك علماء التفسير عند تفسيرها[2]، قال ابن كثير:

---

(1) الخصائص الكبرى للسيوطي (1/ 148، 152).

(2) حقوق النبي على أمته (1/ 140).

﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ على التفصيل الذي شرع لك في القرآن[1].

قال الشوكاني: ومعنى ﴿وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ أنه كان ﷺ لا يعرف تفاصيل الشرائع ولا يهتدي إلى معالمها وخص الإيمان لأنه رأسها وأساسها[2].

ب - ومن النصوص كذلك قول الله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: 7].

فقد يتوهم البعض أن الآية تعني أن نبينا كان على ضلال قبل مبعثه وهذا فهم خاطئ وباطل ترده النصوص التي سبق إيرادها والتي نصت على أن النبي ﷺ كان من أول حاله إلى نزول الوحي عليه معصوماً من عبادة الأوثان وقاذورات أهل الفسق والعصيان[3].

وقد أشار إلى بطلان هذا الفهم القرطبي عند تفسيره لهذه الآية حيث قال: فأما الشرك فلا يظن به[4].

وأما المعنى الصحيح لهذه الآية فقد أشار العلماء إلى عدة معان صحيحة لهذه الآية تشترك جميعاً في تنزيه النبي ﷺ عن أن ينسب إليه شيء من الشرك أو الكفر قبل بعثته ومن تلك المعاني ما يلي:

- أن يفسر الضلال هنا بمعنى الغفلة كما في قوله تعالى: ﴿لَّا

(1) تفسير ابن كثير (4/ 122).
(2) فتح القدير (4/ 530).
(3) حقوق النبي على أمته (1/ 140).
(4) تفسير القرطبي (20/ 99).

يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: 52].

وكما في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: 3].

والمعنى أنه وجدك غافلاً عما يراد بك من أمر النبوة[1].

- وقال بعضهم معنى «ضالاً»: لم تكن تدري ما القرآن والشرائع فهداك الله إلى القرآن وشرائع الإسلام، وهو بمعنى قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ وعلى هذا التفسير يكون المعنى: أي وجدك ضالاً عن شريعتك التي أوحاها إليك لا تعرفها قبل الوحي إليك فهداك إليها[2].

- وقال بعضهم معنى الآية: أي وجدك في قوم ضلال فهداهم الله بك[3].

ولقد أورد العلماء عدداً من المعاني لهذه الآية منها ما هو معنوي ومنها ما هو حسي وهي معانٍ كلها حسان[4].

ج - ومن النصوص كذلك قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: 3].

فليس المقصود بالغفلة هنا الشرك والغواية إنما المقصود منها

---

(1) تفسير القرطبي (20/ 96)، فتح القدير (5/ 458).
(2) تفسير القرطبي (20/ 96، 97).
(3) فتح القدير (5/ 458)، تفسير القرطبي (20/ 97).
(4) تفسير القرطبي (20/ 97) بتصرف حقوق النبي على أمته (1/ 142).

الغفلة عن قصة يوسف مع أبيه وإخوته كما يوضح ذلك سياق الآية، فهذه القصة وأمثالها لا تعلم إلا من الوحي فلهذا لا يلحقه نقص بسببها وهذا هو ما ذكره علماء التفسير عند هذه الآية[1]، قال الشوكاني: والمعنى أنك من قبل إيحائنا إليك من الغافلين عن هذه القصة[2].

5 - عصمته من الكذب في غير الوحي والتبليغ:

من المعروف عن سيرته ﷺ قبل البعثة وبعدها أنه متصف بكل خلق فاضل من صدق وأمانة وبر وصلة رحم وإحسان وجود إلى غير ذلك من محاسن الأخلاق التي جبله الله عليها منذ نشأته، وحريٌ به ﷺ أن يكون كذلك، فقد اختاره الله لحمل الأمانة العظمى التي هي أداء الرسالة وتبليغها إلى الناس كافة فكان لابد من إعداده لهذه المهمة، ولذا فقد فطره الله على كل خلق فاضل كريم وقد جمع الله له خصال الخير كلها فلم يكن يدعى إلا بالأمين ومن الأدلة التي يستدل بها على اتصافه بالصدق قبل بعثته ما يلي:

أ - **قول خديجة بنت خويلد** رضي الله عنها: حينما أتاها النبي ﷺ خائفاً بعد أن لقيه جبريل في غار حراء، وقال لها: «**إني قد خشيت على نفسي**» فقالت له: كلا أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبداً، فوالله إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق[3].

---

(1) حقوق النبي على أمته (1/ 142).
(2) فتح القدير (3/ 4).
(3) البخاري، كتاب التفسير رقم 4953، فتح الباري (8/ 715).

ب - إجماع قريش على الإقرار بصدقه: حينما جمعها ليصدع بالدعوة جهراً، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214].

صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي: يا بني فهر يا بني عدي - لبطون قريش - حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: «**أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي**» قالوا: ما جربنا عليك إلا صدقاً. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد(1).

فالشاهد من الحديث قولهم: «ما جربنا عليك إلا صدقاً» فالنبي ﷺ انتزع منهم هذه الشهادة الجماعية بصدقه وانتفاء الكذب عنه، لعلمه بما قد سيقع من تكذيبهم له عند إخبارهم بأمر الرسالة(2).

ج - على الرغم من تكذيب قريش للنبي ﷺ في دعوة النبوة: إلا أن أحداً منهم لم يجرؤ على وصفه بالكذب في سواها فقد قال أبو جهل للنبي ﷺ: إنا لا نكذبك ولكن نكذب الذي جئت به، فأنزل الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: 33].

---

(1) البخاري رقم 4770 فتح الباري.

(2) حقوق النبي على أمته (1/ 148).

وكذلك عندما سأل الأخنس بن شريق أبا جهل بعد ما خلا به يوم بدر، فقال: يا أبا الحكم، أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس هٰهنا أحد من قريش غيري وغيرك يسمع كلامنا، فقال أبو جهل: ويحك، والله إن محمداً لصادق، وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والحجابة والسقاية والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش[1].

هذه بعض النماذج التي تدل على صدقه ﷺ وعصمته من الكذب قبل بعثته وكذا الحال بعد بعثته ﷺ فهذه أخبار نبينا محمد ﷺ وسيره وشمائله معتنى بها مستوفاة تفاصيلها لم يرد في شيء منها تداركه ﷺ لخبر صدر منه رجوعاً عن كذبة كذبها ولو وقع شيء من ذلك لنقل إلينا[2].

6 - مسألة وقوع الخطأ منه:

أما ما يقع من الخطأ منه في جانب الأمور الدنيوية فمن الأدلة على ذلك حديث رافع بن خديج رضي الله عنه قال: قدم نبي الله ﷺ المدينة وهم يؤبرون النخل (يقولون: يلقحون النخل)، فقال: «**ما تصنعون؟**» قالوا: كُنّا نصنعه. قال: «**لعلكم لو لم تفعلوا كان خيراً**» فتركوه فنقصت. قال: فذكروا ذلك له، فقال: «**إنما أنا بشر**

---

(1) تفسير ابن كثير (2/ 130).

(2) حقوق النبي على أمته (2/ 150).

إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به وإذا أمرتكم بشيء من رأي فإنما أنا بشر»[1].

وفي رواية أنس «**أنتم أعلم بأمر دنياكم**»[2]، وفي رواية طلحة: «**إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه، فإني إنما ظننت ظناً فلا تواخذوني بالظن ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به فإني لا أكذب على الله عز وجل**»[3]، وكذلك الأمر بالنسبة لأحكام البشرية الجارية على يديه وقضاياهم، ومعرفة المحق من المبطل، وعلم المصلح من المفسد، فهذه أمور اجتهادية يجتهد فيها برأيه فقد قال رسول الله ﷺ: «**إنكم تختصمون إليّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع منه فمن قطعت له من حقه أخيه شيئاً فلا يأخذه فإنما أقطع له به قطعة من النار**»[4].

فاقتضت حكمته تعالى أن لا يكون معصوماً في هذا الجانب وذلك حتى تقتدي به الأمة من بعده في النظر في القضايا والأحكام على ما كان يقضي به بين الناس[5].

قال القاضي عياض: وتجري أحكامه ﷺ على الظاهر وموجب

(1) مسلم، كتاب الفضائل (7/ 95).
(2) مسلم (7/ 95).
(3) مسلم (7/ 95).
(4) البخاري رقم 2680، فتح الباري (5/ 288).
(5) حقوق النبي على أمته (2/ 159).

غلبات الظن بشهادة الشاهد، ويمين الحلف، ومراعاة الأشبه، ومعرفة العفاض والوكاء مع مقتضى حكمة الله في ذلك[1].

7 - خلاف الأولى والأحسن والأفضل:

الرسول ﷺ محفوظ بعناية الله محاط برعايته فلا يمكن أن تقع له مخالفة لأمر الله أو يرتكب ذنباً يستحق عليه العقوبة ولكنه ﷺ قد يجتهد فيفعل خلاف الأولى والأفضل والأحسن فيعاتبه ربه وليس هذا من قبيل الذنب والمعصية وإنما هو من قبيل التنبيه إلى فعل الأكمل والأفضل وإليك بعض النصوص الكريمة التي ورد فيها العقاب لرسول الله ﷺ:

أ - عتاب رسول الله ﷺ بشأن أسرى بدر:

قال ابن عباس: ولما أسروا الأسرى، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «**ما ترون في هؤلاء الأسارى**»؟، فقال أبو بكر: يا نبي الله، هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية، فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «**ما ترى يا ابن الخطاب**». قلت: لا والله يا رسول الله، ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تمكّنا فنضرب أعناقهم، فتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه، وتمكنني من فلان نسيباً لعمر: فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها.

فهوى رسول الله ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت (يعني ما قاله عمر).

---

(1) الشفا (2/ 875).

فلمّا كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان. قلت: يا رسول الله أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد تباكيت لبكائكما، فقال رسول الله ﷺ: «**أبكي للذي عرض عليّ أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عُرض عليّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة**» - شجرة قريبة من نبي الله ﷺ - وأنزل الله عز وجل قول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا﴾ فأحل الله الغنيمة لهم[1].

وفي رواية عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر وجيء بالأسرى، قال رسول الله ﷺ: «**ما تقولون في هؤلاء الأسارى؟**»

فقال أبو بكر: يا رسول الله، قومك وأهلك، استبقهم واستأن بهم، لعل الله أن يتوب عليهم.

وقال عمر: يا رسول الله، كذبوك وأخرجوك، قرّبهم فأضرب أعناقهم.

وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله، انظر وادياً كثير الحطب، فأدخلهم فيه، ثم أضرم عليهم ناراً. قال: فقال العباس: قطعت رحمك. قال: فدخل رسول الله ﷺ، ولم يرد عليهم شيئاً.

فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال ناس: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة.

---

(1) مسلم رقم 1763، ك الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة.

قال: فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: «**إن الله ليُلينُ قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللّبن وإن الله ليشددُ قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم** عليه السلام» حيث قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: 36].

وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى عليه السلام **حيث قال**: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: 118].

وإن مثلك يا عمر كمثل موسى، قال: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: 88].

ثم قال رسول الله ﷺ: «**أنتم اليوم عالة فلا ينفلتن أحد منهم إلا بفداء أو ضرب عنق**»[1].

وأما الآيات التي نزلت بشأن الأسرى، فمن قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ

(1) رواه أحمد في مسنده رقم 3452، كتاب مسند المكثرين من الصحابة، باب مسند عبد الله بن مسعود.

لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [الأنفال: 67 - 71].

لقد كان هذا العقاب توجيهاً من الله ولرسوله ﷺ إلى الأفضل والأولى والأصح والأصوب لهم في تلك الحادثة[1].

والحقيقة أن التحذير الوارد هنا والدرس المراد تلقينه هو للمسلمين جميعاً، أما بالنسبة لرسول الله ﷺ فهو لم يكن له من قبل ولن يكون له من بعد أي ميل للدنيا، فهذا التحذير موجه للمسلمين في شخص الرسول ﷺ لكي يعتبروا ويستفيدوا من التوجيه الإلٰهي[2].

ولما أجمل ما قاله ابن القيم حول هذه المسألة: وقد تكلم الناس في أي الرأيين كان أصوب: فرجحت طائفة قول أبي بكر، لاستقرار الأمر عليه، وموافقته الكتاب الذي سبق من الله بإحلال ذلك لهم، ولموافقته الرحمة التي سبقت الغضب، ولتشبيه النبي ﷺ له في ذلك بإبراهيم وعيسى عليهما السلام، وتشبيهه لعمر بنوح وموسى عليهما السلام، ولحصول الخير العظيم الذي حصل بإسلام أكثر أولئك الأسرى ولخروج من خرج من أصلابهم من المسلمين، ولحصول القوة التي حصلت للمسلمين بالفداء، ولموافقة رسول الله ﷺ لأبي بكر أولاً ولموافقة الله له آخراً، حيث استقرّ الأمر على رأيه، ولكمال نظر الصدّيق، فإنه رأى ما يستقر عليه

(1) كتاب الرسول في القرآن، د. صلاح الخالدي، ص: 53.

(2) العصمة النبوية، محمد فتح الله كولن، ص: 84.

حكم الله آخراً، وغلب جانب الرحمة على جانب العقوبة.

قالوا: وأما بكاء النبي ﷺ، فإنما كان رحمة لنزول العذاب بمن أراد بذلك عرض الدنيا، ولم يُرد بذلك رسول الله ﷺ ولا أبو بكر وإن أراده بعض الصحابة، فالفتنة كانت تعُمّ ولا تصيب من أراد ذلك خاصة[1].

ب - إذن الرسول ﷺ في المتخلفين عن غزوة تبوك:

قال تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة: 43].

لما عزم رسول الله ﷺ إلى تبوك استأذنه بعض المنافقين في التخلف، لأعذار أبدوها، فأذن لهم فيه لسببين:

أحدهما: أن الله لم يتقدم إليه في ذلك الأمر ولا نهى.

ثانيهما: أنه لم يرد أن يجبرهم على الخروج معه، فقد يكون في خروجهم على غير إرادتهم ضرر.

فأنزل الله تعالى يبين له أن ترك الإذن لهم كان أولى لما يترتب عليه من انكشاف الصادق من الكاذب، فيما أبدوه من الأعذار، واستفتح رب العزة ما أنزله بجملة دعائية هي قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ على عادة العرب في استفتاح كلامهم بهذه الجملة، أو بقولهم: غفر الله لك، أو جعلت فداك، أو نحوها يقصدون تكريم المخاطب، إذ كان عظيم القدر، ولا يقصدون المعنى الوصفي

(1) زاد المعاد لابن القيم (3/ 111).

للجملة[1]، ولو بدأ رب العزة حبيبه ومصطفاه بقوله: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ لخيف عليه أن ينشق قلبه من هيبة هذا الكلام، لكن الله تعالى برحمته أخبره بالعفو حتى سكن قلبه، ثم قال له: لم أذنت لهم بالتخلف حتى يتبين لك الصادق في عذره من الكاذب؟ وفي هذا عظيم منزلته عند الله ما لا يخفى على ذي لب، ومن إكرامه إياه وبره به، ما ينقطع دون معرفة غايته نياط القلب، فليتأمل كل مسلم، هذه الملاطفة العجيبة في السؤال من رب العالمين، المنعم على الكل، المستغني عن الجميع ويستشير ما فيها من الفوائد وكيف ابتدأ بالإكرام قبل العتب، وهل سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا إن كان ثم عتب وأنس العفو قبل ذكر الذنب إن كان ثم ذنب، وهكذا في أثناء عتبه، براءته، وفي طي تخويفه تأمينه وكرامته[2]، إن قوله تعالى: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ غاية ما يمكن أن يدعي فيها أن تكون دالة على أنه ﷺ ترك الأولى والأفضل، وقد بينت أن ترك الأولى ليس بذنب[3].

ج - عتاب رسول الله ﷺ بشأن عبد الله ابن أم مكتوم:

أجمع المفسرون والإخباريون على أن مطلع سورة «عبس» نزل عتاب من الله لرسوله ﷺ لموقفه من الصحابي عبد الله ابن أم مكتوم رضي الله عنه، ومطلع السورة النازل في تلك الحادثة هي قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ

(1) رد شبهات حول عصمة النبي، د. عماد الشربيني، ص: 181.

(2) الشفا للقاضي عياض بتصرف (1/ 28، 29، 30).

(3) رد شبهات حول عصمة النبي، ص: 182.

فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [عبس: 1 - 16].

أتى عبد الله بن أم مكتوم النبي ﷺ وهو يناجي عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام، والعباس بن عبد المطلب، وأبيّ بن خلف، وأمية بن خلف، ويدعوهم إلى الله تعالى، ويرجو إسلامهم، فقال له ابن أم مكتوم: يا رسول الله، علمني مما علمك الله، وجعل يناديه ويكرر النداء، ولا يدري أنه مشتغل مقبل على غيره، حتى ظهرت الكراهية في وجه رسول الله ﷺ لقطعه كلامه، فعبس رسول الله ﷺ وأعرض عنه، وأقبل على القوم الذين يكلمهم، فأنزل الله تعالى هذه الآيات وكان رسول الله ﷺ بعد ذلك يكرمه، وإذا رآه يقول: مرحباً بمن عاتبني فيه ربي[1].

فأنت ترى من سبب النزول أن النبي ﷺ كان مشغولاً مع رؤساء قريش، وكان يحرص على دعوتهم لأنهم إذا أسلموا أسلم بإسلامهم الناس، وقد جاءه هذا الأعمى في وقت كان ﷺ مشغولاً فيه فترك إجابته لما هو - في نظره - أهم وأعظم، فعاتبه الله على هذا وبين له ما هو الأفضل والأحسن[2].

د - ثبات الرسول أمام مساومات الكفار:

إن الله هو الذي ثبت الرسول ﷺ على الحق وجعله يواجه

(1) أسباب النزول للواحدي، ص: 254.
(2) النبوة والأنبياء (99).

مساومات وإغراءات وعروض الكافرين بمزيد من الثبات، وقد امتن الله على رسوله في تثبيته على الحق، وأخبره، أنه لولا فضله عليه بذلك التثبيت لاستجاب للمشركين، فقال له: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَـٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [الإسراء: 73 - 77] [1].

وقد أحسن محمد الطاهر ابن عاشور في تفسيره للآيات فقال: ولولا أن عصمناك من الخطأ في الاجتهاد، وأريناك أن مصلحة الشدة في الدين، والتنويه باتباعه ـ ولو كانوا من ضعفاء أهل الدنيا ـ لا تعارضها مصلحة تأليف قلوب المشركين، فإن إظهار الهوادة في أمر الدين تطمع المشركين في الترقي إلى سؤال ما هو أبعد مدى مما سألوه، فمصلحة ملازمة موقف الحزم معهم أرجح من مصلحة ملاينتهم وموافقتهم ولولا ذلك كله كدت تركن إليهم قليلاً، أن تميل إليهم، أي: توعدهم بالإجابة إلى بعض ما سألوك، استناداً لدليل مصلحة مرجوحة واضحة، وغفلة عن مصلحة راجحة خفيفة، واغتراراً بخفة بعض ما سألوه في جانب عظيم ما وعدوا به من إيمانهم.

(1) عتاب الرسول في القرآن، ص: 90.

وركون الرسول ﷺ إليهم غير واقع، ولا مقارب الوقوع، وقد نفته الآية بأربع أمور، هي: «لولا» الامتناعية وفعل المقاربة (كاد) المقتفي أنه ما كان يقع الركون ولكن يقع الاقتراب منه والتحقير المستفاد من كلمة شيئاً والتقليل المستفاد من كلمة (قليلاً)، أي: لولا إفهامنا إياك وجه الحق لخيف أن تقترب من ركون ضعيف قليل، ولكن ذلك لم يقع، ودخلت (قد) في حيز الامتناع ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾ فأصبح تحقيقها معدوماً، أي: لولا أن ثبتناك لتحقق قرب ميلك القليل، ولكن ذلك لم يقع، لأنا ثبتناك[1].

لقد أخبر الله تعالى عن تأييده لرسوله وتثبيته، وعصمته وسلامته من شر الأشرار وكيد الفجار، وأنه تعالى هو المتولي أمره ونصره، وأنه لا يكله إلى أحد من خلقه، بل هو وليه وحافظه وناصره ومؤيده، ومظهر دينه على من عاداه وخالفه في مشارق الأرض ومغاربها[2].

هـ - **قال تعالى**: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: 94].

فهذه الآية الكريمة ليس فيها ما يدل على شك الرسول ﷺ في

---

(1) تفسير ابن عاشور (15/ 175 - 176).

(2) صحيح تفسير ابن كثير، مصطفى العدوي (2/ 659).

الوحي الذي نزل عليه، وإنما هو من باب «الفرض والتقدير» كما هو عادة العرب في تقدير الشك ليبنى عليه ما ينفي احتمال وقوعه، كما تقول لابنك: «إن كنت ابني فلا تكن بخيلاً» ومعنى الآية على هذا التقدير، إن وقع منك يا محمد شك ـ فرضاً وتقديراً ـ فيما قصصنا عليك من أخبار الأنبياء السابقين كنوح وإبراهيم فاسأل علماء أهل الكتاب الذين يقرءون الكتاب من قبلك، فإنهم على علم من ذلك، فالغرض وصف الأحبار بالعلم لا وصف النبي بالشك والريب، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا والله ما شك رسول الله طرفة عين، ولا سأل أحداً منهم(1).

و - **قال تعالى**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الأحزاب: 1 - 2].

فإن هذا النص الكريم ليس فيه ما يدل على وقوع الذنب من الرسول ﷺ وإنما هو خطاب للأمة توجه إلى القائد والزعيم في صورة الخطاب له ﷺ والمراد به أمته، كما يقول الملك بقائد جيشه: لا تتسامح مع العدو، وقاتلهم حتى يخضعوا لحكمك وينقادوا لأمرك، ولا تقتل طفلاً ولا امرأة ولا شيخاً كبيراً ولا تظهر أمام عدوك الخوف والفزع إلى آخر ما يأمر به فهو يخاطب القائد والمراد به الجند وينبه الزعيم والمراد به الأمة والدليل أن المقصود

(1) النبوة والأنبياء، ص: 100.

بالخطاب هو الأمة لا شخص الرسول أن الله تعالى ختم الآيات الكريمة بصيغة الجمع: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ولم يقل: بما تعمل، فهو مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: 1].

هي خطاب للأمة في شخص الرسول ﷺ وإذا حملنا الخطاب على الرسول ﷺ فليس ما فيه ما يدل على أن الرسول همّ بطاعة الكافرين والمنافقين، أو فعل معصية حتى أمره الله تعالى بالتقوى وإنما غاية ما في الأمر أن الله تعالى حذره من مكر الكافرين، وخداع المنافقين، وأطلعه على خبيئة نفوسهم ليكون الرسل منهم على حذر، ولئلا ينخدع بمعسول كلامهم[1].

ز - أمر الرسول بالبقاء مع المؤمنين المستضعفين:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: 52].

ففي هذه الآية تحذير له ﷺ على إجابة كفار قريش في طرد المؤمنين المستضعفين، وليس فيها ما يدل على أنه طردهم فعلاً، وإنما هو عرض عرضه المشركون على رسول الله فجاء التنبيه من الله والتحذير من فعله، روى مسلم عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء، لا يجترئون علينا، قال: وكنت أنا وابن

(1) النبوة والأنبياء، ص: 101.

مسعود، ورجل من هذيل، وبلال، ورجلان لست أسميهما فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدَّث نفسه فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: 52][1].

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: مرَّ الملأُ من قريش برسول الله ﷺ، وعنده خبَّاب وصهيب وبلال وعمار، وغيرهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد، أرضيت بهؤلاء من قومك؟ اطردهم فلعلَّك إن طردتهم أن نتبعك، فأنزل الله قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: 52][2].

وبعدما نهى الله رسوله ﷺ عن الاستجابة لطلب المشركين بطرد المؤمنين أمره أن يكرم المؤمنين إكراماً آخر، وذلك بأن يبادرهم بالسؤال عندما يجيئوه إليه، ويبشرهم برضا الله عنهم، ومغفرته لهم، ورحمته بهم، ليزدادوا عبادة لله ونشاطاً في طاعته ويكثروا من التوبة والاستغفار، قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: 54].

فالرسول ﷺ لم يرتكب خطأ لأنه لم يوافق الكفار المشركين على طلبهم، ولم يطرد المستضعفين من مجلسه، وكل ما في الأمر أنه حدَّثته نفسه بشيء، ووقع في قلبه ما شاء الله أن يقع كما قال

(1) مسلم، كتاب فضائل الصحابة رقم 2413.

(2) تفسير ابن كثير (2/ 138 - 139).

سعد بن أبي وقاص ﷺ، ولعله مال إلى الموافقة على طلبهم لحرصه على إيمانهم، ولكن الله تداركه، فأنزل الله عليه الآيات المذكورة من سورة الأنعام، لتنهاه عن ذلك وأكدها بآيات من سورة الكهف، قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف: 28-29]. لقد شاء الله لرسوله ﷺ الأفضل والأكمل وأرشده إليه، فالتزامه ﷺ مقرراً الميزان الرباني الصحيح في التكريم والتفضيل وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾ [الحجرات: 13].

وقد روى مسلم عن أبي هريرة ﷺ، عن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»**[1].

ح - زواج الرسول ﷺ بزينب بنت جحش ﵂:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ﴾ [الأحزاب: 37].

يحلو لبعض الناس أن يثيروا بعض الشبهات حول زواج

(1) مسلم، كتاب البر والصلة والآداب رقم 2564.

النبي ﷺ بزينب رضي الله عنها التي كانت عند مولاه ومتبناه «زيد بن حارثة» وأن يقيموا زوبعة من الزوابع الهوجاء حول «عصمته» ﷺ، فقد زعموا أن محمداً رأى زينب فأحبها ثم كتم هذا الحب، ثم بعد ذلك أظهره، ورغب في زينب فطلقها زوجها زيد وتزوجها رسول الله، وزعموا أن العتاب في الآية لكتمان هذا الحب.

وكذبوا بعض الأكاذيب الأثيمة فزعموا أن النبي ﷺ مرّ ببيت زيد وهو غائب فرأى زينب فوقع منها في قلبه شيء فقال: سبحان مقلّب القلوب فسمعت زينب التسبيحة فنقلتها إلى زيد فوقع في قلبه أن يطلقها حتى يتزوج بها الرسول، إلى غير ما هنالك من المزاعم الباطلة التي تلقفها «المستشرقون» ومن على شاكلتهم وأباحوا لأنفسهم الخوض في الأعراض والتكلم في حق النبي الكريم وتصويره بصورة يترفع عنها كثير من الناس، وكان سندهم في ذلك بعض الروايات الإسرائيلية التي دسّت في كتب التفسير وهي روايات باطلة لم يصحَّ فيها، كما قال: «أبو بكر ابن العربي»[(1)]:

ولا حجة لمن ذهب هذا المذهب وفسَّر الآيات بما لا يليق بمنصب النبوة ولا بالعصمة من المتقدمين من المفسرين الذين اعتمدوا على روايات ضعيفة وأسانيد واهية اتخذت فيما بعد لضجيج أهوج، وصيحات هستيرية تطعن في السنة النبوية وأهلها من أعدائها وترمي بالنقيصة وعدم العصمة أكمل الناس خلقاً وأحمدهم سيرة[(2)].

ولا حجة لهم في التعلق بظاهر الآية ولا بالآراء التي قبلت في

(1) النبوة والأنبياء، ص: 106.

(2) رد شبهات حول عصمة النبي، ص: 195.

تأويلها ولا سند لها بل هي باطلة لوجوه:

الوجه الأول: أنه ليس في الآية ما يدل على أن رسول الله ﷺ صدر منه في هذه الواقعة مذمة ولا عاتبه الله على شيء منه، ولا ذكر أنه عصى أو أخطأ، ولا ذكر استغفار النبي ﷺ منه ولا أنه اعترف على نفسه مخطئاً، وأنه لو صدر عنه زلة لوجد من ذلك شيء.

الوجه الثاني: أنه ذكر في القصة بصريح القرآن الكريم ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ [الأحزاب: 38]. ونفى الحرج عن النبي ﷺ تصريح بأنه لم يصدر منه ذنب ألبتة، كما أن نفي الحرج رد على من توهم من المنافقين نقصاً في تزويجه ﷺ امرأة زيد مولاه ودعيه الذي كان قد تبناه[1].

الوجه الثالث: أنه تعالى ذكر الحكمة والعلة من زواجه ﷺ من زينب رضي الله عنها بقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الأحزاب: 37].

الوجه الرابع: قوله تعالى: ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾، ولو حصل في ذلك سوء لكان قدحاً في الله تعالى، وهو ما يؤكد أنه لم يصدر منه ﷺ ذنب ألبتة في هذه القصة.

الوجه الخامس: أنه لو كان ما زعموه صحيحاً، لكان قوله ﷺ لزيد كما حكى القرآن الكريم: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ [الأحزاب:

(1) رد شبهات حول عصمة الرسول، ص: 197.

37]، نفاقاً، لأنه أظهر بلسانه خلاف ما يضمره في نفسه، لكن الله عز وجل عصم نبيه ﷺ من ذلك.

الوجه السادس: أن رسول الله ﷺ لم يكن يرى زينب للمرة، فهي بنت عمته، ولقد شاهدها منذ ولدت، وحتى أصبحت شابة، أي شاهدها مرات عديدة فلم تكن رؤيته لها مفاجأة كما تصور القصة الكاذبة، ولو كان رسول الله ﷺ يحمل أي ميل نحو زينب رضي الله عنها لتقدم بزواجها، وقد كان هذا أملها وأمل أخيها حين جاء ﷺ يخطبها منه، فلما صرح لهما زيد، أبيا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: 36]، فقالا: رضينا بأمر الله ورسوله، وكانت هذه الآية توطئة وتمهيداً لما ستقرره الآيات التالية لها من حكم شرعي يجب على المؤمنين الانصياع له وامتثاله والعمل به وتقبله بنفس راضية، وقلب مطمئن وتسليم كامل.

الوجه السابع: أن ما أخفاه النبي ﷺ وأبداه الله تعالى هو: أمره بزواج زينب ليبطل حكم التبني، هذا ما صرحت به الآية لا شيء آخر غيره قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الأحزاب: 37].

فكيف يعدلون عن تصريح القرآن الكريم إلى روايات لا زمام لها ولا خطام وليس في هذا الإخفاء ما يعاب عليه ﷺ أصلاً، وإلا لكان ذنباً تجب منه التوبة؟ وليس في الآية الكريمة ما يشعر بشيء

من ذلك وعليه فالإخفاء هو غاية العقل وعين الكمال، لأن ذلك إنما كان سراً بينه وبين خالقه عَزَّوَجَلَّ ، لم يأمره بإذاعته قبل أوانه، فكتمانه في الحقيقة، قبل مجيء وقته هو الكمال الذي لا ينبغي غيره.

ويوضح هذا ونبينه ما وقع منه في قصة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، حين أتاه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ ، قبل أن يتزوجها بأمد بعيد، بصورتها على ثوب من حرير، وقال له: هذه «امرأتك»، وقد عرفها رسول الله ﷺ يقيناً ولم يشك في أنها ستكون من أزواجه الطاهرات، ومع ذلك فقد ترك هذا الأمر سراً مكتوماً بينه وبين ربه، وقال: إن يك هذا من عند الله يمضه[1]. أي أنه من الله ولا بد فلأتركه إلى أن يجيء وقته الموعود، فلما جاء هذا الوقت أظهره الله تعالى، وتم ما أراد عَزَّوَجَلَّ .

وهنا نصل إلى أصح المحامل في قصة زينب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وهو أن الله تعالى قد أعلم نبيه ﷺ أنها ستكون من أزواجه، فلما شكاها له زيد، وشاوره في طلاقها، ومفارقتها، قال له على سبيل النصيحة والموعظة الخالصة: «**أمسك عليك زوجك واتق الله**»، أي واتق الله في شكواك منها[2]، واتهامك لها بسوء الخلق، والترفع عليك لأنه شكا منها ذلك، وأخفى رسول الله ﷺ في نفسه ما كان أعلمه الله به

(1) فتح الباري لابن حجر (9/ 8) رقم 5125.
(2) السنن الكبرى للبيهقي (7/ 138).

من أنه سيتزوجها، مما الله مبديه ومظهره بتمام التزويج وطلاق زيد لها[1].

ويصحح هذا قول المفسرين في قوله تعالى بعد هذا: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾، أي لا بد لك أن تتزوجها، ويوضح هذا أيضاً أن الله تعالى لم يبد من أمره ﷺ معها غير زواجه لها، فدل على أنه الذي أخفاه ﷺ مما كان أعلمه به ربه عَزَّوَجَلَّ .

وبهذا القول: الذي تعطيه التلاوة من أن الذي أخفاه النبي: هو إعلام الله له أنها ستكون لها زوجة له بعد طلاقها من زيد، قال به جمهور السلف، والمحققون من أهل التفسير والعلماء الراسخون كابن العربي والقرطبي[2]، والقاضي عياض[3]، والقسطلاني في المواهب والزرقاني في شرحها[4]، وغيرهم ممن يعنون بفهم الآيات القرآنية وفقهها، وتنزيه الرسل عما لا يليق بهم من الروايات البعيدة عن منطق الحق والواقع[5].

إن النبي ﷺ لم يقدم خشية الناس على خشية الله، لأن الله لم يكلفه بعمل شيء فتركه ولم ينفذه لأنّه يخشى الناس ولما أمره الله بالزواج بزينب نفذ أمر الله، ولو لم يفعل ذلك خوفاً من كلام الناس

---

(1) رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ، ص: 198.

(2) الجامع لأحكام القرآن (14/ 190 - 191).

(3) الشفا (2/ 191).

(4) شرح الزرقاني على المواهب نقلاً عن رد شبهات، ص: 199.

(5) رد شبهات حول عصمة النبي، ص: 199.

- وحاشاه أن يفعل - لقيل: كان يخشى الناس أكثر من خشيته لله، فلامه وعاتبه وقال له: عليك أن تخشى الله أكثر من خشية الناس، لأنه أحق أن تخشاه[1].

روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: لو كان محمد ﷺ كاتماً شيئاً مما أنزل عليه لكتم هذه الآية: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: 37][2].

وكان الحق هو أن هذا الزواج كان امتحاناً في أوله لزينب وأخيها حيث أكرها على قبول زيد، وفي النهاية كان امتحاناً قاسياً للنبي ﷺ حيث يؤمر به ويعلم نهايته وزينب تحت مولاه زيد والحكمة كما نطق القرآن هو تحطيم مبدأ كان معمولاً به ومشهوراً عند العرب هو «تحريم زواج امرأة الابن من التبني كتحريمها إذا كان الابن من النسب ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الأحزاب: 38][3].

وكان رسول الله ﷺ يعلم أن زيداً وزينب لن يتفقا، لأن الله أخبره بذلك كما أخبره أنه هو سيتزوجها بعد تطليق زيد لها، وكان يخفي هذا الخبر في نفسه مع يقينه أن الله سيبديه ويظهره في حينه،

---

(1) عتاب الرسول في القرآن، ص: 118.
(2) مسلم رقم 177، كتاب الإيمان.
(3) النبوة والأنبياء، ص: 108.

وسبب إخفائه له أنه كان يخشى ويتحرج من كلام الناس، وشبهات المنافقين، حيث سيقولون: تزوَّج محمد امرأة ابنه وعليه ﷺ أن لا يخشى الناس، لأن الله هو الأحق أن يخشاه.

ولم يُخطئ رسول الله ﷺ في موقفه، ولم يفعل ما يعاتب فيه أو يُلام عليه ولذلك لم يفعل ما يعاتبه الله في قوله له: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ لأنه ليس في ما يلام عليه، لأن الله لم يأمره أن يخبر الناس ويظهر لهم ما أخبره الله به، من أنه سيتزوج زينب بعد تطليق زوجها لها، لأن الله هو الذي أمره بذلك فما في الآية هو إخبار من الله عن موقف النبي ﷺ من الحادثة وكان موقفه سليماً صحيحاً والله أعلم[1].

ط - ما الذي حرمه الرسول على نفسه لمرضاة أزواجه ؟

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ

(1) عتاب الرسول في القرآن، ص: 122

مُؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾﴾ [التحريم: 1 - 5].

لهذه الآيات سببان للنزول، وردا في روايات صحيحة:

السبب الأول: روى البخاري ومسلم عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان رسول الله ﷺ يمكث عند زينب بنت جحش، ويشرب عندها عسلاً، وتواصيت أنا وحفصة أن أيّتُنا دخل عليها النبي ﷺ فتقل: إني أجد منك ريح مغافير، أكلت مغافير[1]؟

فدخل على إحداهما، فقالت ذلك له، فقال: « **لا بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش ولن أعود له**».

فأنزل الله قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ...﴾ إلى قوله: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ...﴾ لعائشة وحفصة، ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ لقوله: بل شربت عسلاً[2].

وفي لفظ آخر للبخاري، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت كان رسول الله ﷺ يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش، ويمكث عندها، فواطأت أنا وحفصة أن أيتنا دخل عليها فلتقل له: أكلت مغافير؟ إني أجد منك ريح مغافير.

قال: «**لا ولكني كنت أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش،**

---

(1) المغافير: جمع مغفار من شجر صحراوي له شوك، يسمى العرفط وهذا الصمغ حلو الطعم كريه اللون.

(2) مسلم رقم 1474 البخاري رقم 5267.

فلن أعود له وقد حلفت، لا تخبري بذلك أحداً»[1].

ويبدو أن التي جرى بينها وبينه هذا الكلام هي حفصة ولكنه لم تلتزم بقوله: لا تخبري أحداً، حيث أخبرت شريكتها في الحادثة عائشة بذلك ولعلَّ هدفها من إخبارها هو تبشيرها بنجاح خطتهما لإبعاد رسول الله ﷺ عن عسل زينب، وليس لإفشاء سر رسول الله ﷺ، فها هو قد حلف يميناً عن ذلك، فأنزل الله الآيات عتباً للرسول على يمينه، ودعاه إلى التكفير عنه، وأخبره عن إفشاء حفصة كلامه لها، والتفت الآيات إلى لوم حفصة وعائشة رضي الله عنهما، وتهديدهما بالعقاب، ودعوتهما إلى التوبة والاستغفار، وإخبارهما أن الله وجبريل والمؤمنين معه[2].

السبب الثاني: مارية رضي الله عنها: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرمها، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [التحريم: 1][3].

وروى الطبري عن زيد بن أسلم: أن رسول الله ﷺ أصاب أم إبراهيم في بيت بعض نسائه فقالت حفصة: أي رسول الله في بيتي وعلى فراشي؟

---

(1) البخاري، ك التفسير رقم 4912.
(2) عتاب الرسول في القرآن، ص: 138.
(3) فتح الباري (9/ 288)، رقم 5266.

فجعلها عليه حراماً، فقالت: يا رسول الله، كيف تحرم عليك الحلال؟ فحلف لها بالله لا يصيبها، فأنزل الله قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[1].

أم إبراهيم هي جاريته مارية القبطية، التي أهداها له حاكم مصر المقوقس السنة السابعة من الهجرة، وهي أمته وملك يمينه، وقد أنجبت له ابنه إبراهيم، الذي توفي وهو في السنة الثانية من عمره[2].

وقد رجَّح كثير من المفسرين قصة حلفه على جاريته مارية، مع أن قصة حلفه على العسل أصح إسناداً ويمكن أن يجمع بينهما بالقول:

إن ما حدث أولاً هو تآمر حفصة وعائشة رضي الله عنهما لما شرب العسل في بيت زينب، فقالت له حفصة: أكلت مغافير؟ فحلف لها ألا يعود إليه، وأمرها ألا تخبر أحداً، فخالفت وأخبرت حليفتها عائشة، وبعد ذلك وطئ مارية في بيت حفصة أثناء غيابها، ولما عادت وغضبت حلف ألا يطأ مارية لترضى، وطلب منها ألا تخبر أحداً، فأخبرت عائشة، وأنزل الله الآيات يعاتب الرسول ﷺ على يمينه، وطلب منه أن يدفع الكفارة ويهدد أزواجه المخالفات بالعقاب[3].

---

(1) تفسير الطبري (28/ 174).

(2) عتاب الرسول في القرآن، ص: 138.

(3) المصدر نفسه، ص: 141، 142.

ـ توجيه تحريم الرسول ﷺ الحلال:

نتوقف الآن لتوجيه موقف الرسول ﷺ واليمين الذي حلفه، ونوع التحريم الذي حرّمه على نفسه، والذي عاتبه الله عليه بقوله: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾.

وإذا كنا نعتقد أن التحليل والتحريم لله وحده، وأنه لا يجوز لأي إنسان أن يحرّم ما أحل الله، فكيف حرّم الرسول ﷺ ما أحل الله له؟ هناك معنيان للتحريم:

الأول: تحريم لغوي عام وهو بمعنى «الامتناع»، فإذا امتنع إنسان عن فعل شيء، قيل حرّم هذا الشيء عن نفسه.

والثاني: تحريم شرعي خاص، وهو أن يمتنع المسلم عن فعل شيء، لأن الله نهاه عنه، وهدَّده بالعذاب إن فعله.

والامتناع عن فعل شيء يُسمى تحريماً لغة، وهو ألا يكون امتناعاً شرعياً إلا إذا حرّمه الشرع وأمر بالامتناع عنه أو زعم الممتنع عنه أن الشرع حرّمه.

وتحريم رسول الله ﷺ شرب العسل على نفسه، وتحريمه وطء جاريته من النوع الأول، فهو تحريم لغوي قائم على معنى امتناعه من فعل الحلال المباح وليس من التحريم الشرعي، لأن الرسول ﷺ يقول أن التحريم الشرعي حق الله، وأنه لا يجوز له تحريم شيء تحريماً شرعياً أباحه الله، ومن التحريم بمعناه العام القائم على الامتناع، قوله تعالى عن موسى عليه الصلاة والسلام وهو طفل رضيع، التقطه آل فرعون: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾ [القصص: 15].

والمعنى: أمر الله شفتي الطفل الرضيع موسى أن تمنعه عن

قبول ثدي أي امرأة مرضع، فإذ وضعت ثديها في فمه رفضه، بحثاً عن ثدي أمه، وانتظاراً لعودته إليها واعتبرت الآية هذا الامتناع تحريماً[1].

ومن هذا التحريم ما حرّمه نبي الله إسرائيل - يعقوب - عليه الصلاة والسلام على نفسه والذي أخبرنا عنه قوله تعالى: ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: 93].

إن يعقوب عليه الصلاة والسلام نبي، يعلم أن التحليل والتحريم لله وحده، وهو لم يُحرم على نفسه شيئاً تحريماً شرعياً، وإنما حرَّمه تحريماً عاماً، أي امتنع عن تناوله امتناعاً شخصياً.

والرسول ﷺ امتنع عن شرب العسل، وعن معاشرة جاريته مارية، امتناعاً شخصياً، ليُرضي بذلك حفصة، وليس امتناعه عن ذلك امتناعاً شرعياً، ولم يُحرم بذلك على نفسه ما أباحه الله له بالمفهوم الشرعي، فهو يعتقد أنه مازال مباحاً له، ولكنه امتنع عن فعل ذلك المباح، واعتبرت الآية امتناع الرسول ﷺ عن ما امتنع عنه تحريماً، لأنه تحريم بالمعنى العام، وهو الامتناع الشخصي عن بعض ما أباح الله له[2].

(1) عتاب الرسول في القرآن، ص: 146.
(2) عتاب الرسول في القرآن، ص: 147.

إن عتاب الله لرسوله ﷺ لا يعني أنه وقع في ذنب أو زلة أو خطأ، إنما يعني أن الله يرشده إلى ما هو أولى وأفضل، فما فعله جائز، لكن كان الأولى والأفضل له هو أن لا يغفله، كان الأفضل أن لا يحلف على ما حلف عليه، والله يريد لرسوله ﷺ دائماً ما هو أولى وأكمل ولذلك عاتبه هذا العتاب الرقيق الذي وعاه رسول الله ﷺ حق الوعي[1] وقد كفرّ رسول الله ﷺ عن يمينيه اللذين حلفهما، وعاد إلى شرب العسل عند زينب، وعاد إلى معاشرة جاريته[2].

ي - صلاة الرسول ﷺ على زعيم المنافقين:

كان عبد الله بن أُبيّ زعيماً للمنافقين وكان شديد العداوة للرسول ﷺ لأنه يراه حرمه ملكاً في المدينة فقد كان زعيماً لقومه الخزرج قبل الهجرة وقد اتفق الأوس والخزرج على أن يتوجوه ملكاً عليهم للقضاء على خلافاتهم ونزاعاتهم، وبينما كانوا يُعدون لحفل تتويجه ملكاً عليهم شرح الله صدور فريق منهم للإسلام، فبايعوا الرسول ﷺ بيعة العقبة الأولى وبيعة العقبة الثانية، ونتج عن ذلك هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، وبذلك فاتت فرصة الزعامة على عبد الله بن أُبيّ، ولذلك أكل الحقد قلبه على رسول الله ﷺ وصار يكيد له ويتآمر عليه، واستمر عبد الله بن أُبيّ مع المنافقين الذين معه في العداوة للمسلمين ورسم المكائد والمؤامرات ضدهم، من السنة الثانية حتى السنة التاسعة للهجرة.

---

(1) عتاب الرسول في القرآن، ص: 150.

(2) عتاب الرسول في القرآن، ص: 150.

وبعد عودة الرسول ﷺ من تبوك في السنة التاسعة من الهجرة مرض عبد الله بن أُبيّ مرض الموت، وجاءه الرسول ﷺ يعوده ولما توفي عبد الله بن أُبيّ في ذي القعدة من السنة التاسعة[1]، فجاء ابنه الصالح عبد الله إلى النبي ﷺ وأخبره بموت أبيه وطلب منه أن يعطيه قميصه، ليكفنه فيه فاستجاب له رسول الله ﷺ، وأعطاه قميصه وكُفن عبد الله بن أُبيّ المنافق الكافر في قميص رسول الله ﷺ[2].

روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: لما توفي عبد الله بن أُبيّ، جاء ابنه إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله أعطني قميصك اكفنه فيه وصلّ عليه، واستغفر له، فأعطاه النبي ﷺ قميصه[3].

والسبب الذي حمل رسول الله ﷺ على أن يكفن المنافق الكافر بثوبه هو الرد على يدٍ كانت لابن أُبيّ عنده، فقد روي البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: لما كان يوم بدر أتى بأسارى وأتى بالعباس، ولم يكن عليه ثوب، فنظر النبي ﷺ له قميصاً فوجدوا قميص عبد الله بن أُبيّ يقدر عليه، فكساه النبي إياه، فلذلك نزع النبي ﷺ قميصه الذي ألبسه قال ابن عيينة: كانت له عند النبي ﷺ يد، فأحب أن يكافئه[4].

وروى البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما مات

(1) عتاب الرسول في القرآن، ص: 68، 69.
(2) المصدر نفسه، ص: 75.
(3) البخاري رقم 1269، مسلم 2774.
(4) البخاري، كتاب التفسير رقم 4671.

عبد الله بن أُبيّ ابن سلول، دُعي رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فلما قام رسول الله ﷺ وثبت إليه، فقلت: يا رسول الله أتصلي على ابن أُبيّ، وقد قال يوم كذا وكذا وكذا، أعدد عليه قوله؟ فتبسم رسول الله ﷺ، وقال: أخِّر عني يا عمر!

فلمَّا أكثرت عليه: قال إني خُيِّرت، فاخترت، لو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها فصلّى عليه رسول الله ﷺ ثم انصرف، فلم يمكث إلا يسيراً حتى أنزل الله عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [التوبة: 84]، فعجبت بعد ذلك من جُرأتي على رسول الله ﷺ (1).

فالنبي ﷺ لم يُخطئ في استغفاره لعبد الله بن أُبيّ زعيم المنافقين، لأنه فعل ذلك من باب فرط رحمته ورأفته وشفقته، ولأن الله لم ينهه عن الاستغفار، للمنافقين نهياً مباشراً صريحاً، لأنه فهم من الآية التخيير وليس النهي، فاختار ما يتفق مع رحمته ورأفته، مع علمه أن الاستغفار لن ينفعهم لأنهم كافرون منافقون.

وأما صلاته على المنافقين، والآية التي تنهى عن ذلك أنزلها الله عليه بعد صلاته وليس قبلها، والآية التي كانت أنزلت قبل صلاته على ابن أُبيّ تحدثت عن الاستغفار وليس الصلاة: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾.

لقد فهم منهم تخيير الله له الاستغفار لهم وتركه، والصلاة من صور الاستغفار، فصلاته على ابن أُبيّ وفق فهمه التخيير من تلك

---

(1) البخاري، كتاب التفسير رقم 4671.

الآية وهو يختار المتفق مع رحمته وهو في صلاته مطبق لما فهمه من الآية، ولا يُلام على اجتهاده، ولا على فعل قام به ليس عنده فيه توجيه من الله ولما أنزل الله عليه آية ينهاه فيها عن الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم، التزام بذلك التوجيه الرباني، ولم يخالفه، إذا مات أحد المنافقين لم يصل عليه رسول الله ﷺ ولم يمشي في جنازته، ولم يقم على قبره، ملتزماً في ذلك بتوجيه الله له وقبل أن يقبض ﷺ أخبر أمين سره حذيفة بن اليمان رضي الله عنه بأسماء المنافقين، لئلا يصلي على أحد منهم أحد بعده[1].

بذلك يتبين لنا أن كل الأنبياء معصومون لأنهم مصطفون من قبل العزيز الغفار لأداء مهمة الرسالة والتي تحتاج لصفة العصمة في الأنبياء والمرسلين.

عاشراً: من اختلف في نبوتهم:

هناك أشخاص صالحون، ورد ذكرهم في القرآن دون التصريح بكونهم أنبياء أو غير أنبياء فاختلف في شأنهم العلماء، وهم ما يلي:

1 - لقمان:

لا يوجد دليل على نبوة لقمان والله تعالى لم يذكر عنه إلا أنه آتاه الحكمة، وذكر بعض ما يدل على حكمته في وعظه لابنه[2].

(1) عتاب الرسول في القرآن، ص: 76.

(2) منهج الحافظ ابن حجر في العقيدة محمد كندو (3/ 1236).

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ [لقمان: 12].

وذهب جمهور أهل العلم إلى أنه كان حكيماً ولم يكن نبياً[1]، وحكى بعضهم اتفاق أهل العلم على ذلك، فلم يعتد بخلاف من خالف[2].

2 - ذو القرنين وتبع:

جاء ذكر ذي القرنين في سورة الكهف، قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ
عن ذي القرنين قل سأتلوا عليكم منه ذكرا (٨٣) إنا مكنا له في
الأرض وآتيناه من كل شيء سببا (٨٤) فأتبع سببا (٨٥) حتى إذا بلغ مغرب
الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ووجد عندها قوما قلنا يا ذا القرنين إما أن
تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا (٨٦) قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد
إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا (٨٧) وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى
وسنقول له من أمرنا يسرا (٨٨) ثم أتبع سببا (٨٩) حتى إذا بلغ مطلع الشمس
وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا (٩٠) كذلك وقد أحطنا
بما لديه خبرا (٩١) ثم أتبع سببا (٨٩) حتى إذا بلغ بين السدين وجد من
دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا (٩٣) قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج
مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا (٩٤) قال
ما مكني فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما (٩٥) آتوني زبر
الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله نارا قال آتوني

(1) آراء بن حجر الهيثمي الاعتقادية محمد الشايع، ص: 428.

(2) شرح صحيح مسلم (2/ 144)، تفسير البغوي (6/ 286).

أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾ [الكهف: 83 - 98].

ومن ضمن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: 86]، فهل كان هذا الخطاب بواسطة نبي كان معه، أو كان هو نبياً؟

جزم الفخر الرازي في تفسيره بأنه كان نبياً، كما نقله الحافظ في الفتح[1] وقال بعد ذلك: قد اختلف في ذي القرنين، فقيل: كان نبياً كما تقدم، وهذا مروي أيضاً عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وعليه ظاهر القرآن.

وذكر الحافظ في شأنه آثاراً كثيرة تدل على كثرة الاختلاف فيه[2].

وبكل حال فإن القول بعدم نبوته هو ما عليه جمهور أهل العلم[3].

الأفضل أن يتوقف في إثبات النبوة لذي القرنين وتبع، لأنه صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ما أدري أتبع نبيناً أم لا، وما أدري ذي القرنين نبياً أم لا**»[4]، فإذا كان الرسول ﷺ لا يدري فنحن

(1) فتح الباري (6/ 382).

(2) منهج الحافظ ابن حجر في العقيدة (3/ 1237).

(3) تفسير البغوي (6/ 198)، تفسير ابن عطية (3/ 538).

(4) رواه الحاكم والبيهقي، انظر صحيح الجامع الصغير (5/ 121).

أحرى بألا ندري[1].

وورد ذكر تبع في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [الدخان: 37].

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [ق: 12 - 14].

3 - الخضر:

لم يذكر اسم الخضر في القرآن وإنما ذكرت فيه قصته مع نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام، وصرحت السنة باسمه، كما في حديث ابن عباس، عن أُبيّ بن كعب عن النبي ﷺ في ذكر القصة[2].

وقد اختلف في نبوة الخضر والذي عليه أكثر أهل العلم أنه نبي، ثم اختلفوا: هل هو رسول أم لا؟ وقال القرطبي: هو نبي عند الجمهور والآية تشهد بذلك[3]، قال طائفة هو ولي[4].

والصحيح قول الجمهور بأنه نبي لا ولي، وقول من قال منهم بنبوته دون رسالته[5]، ويقول العلامة الألوسي: . . . والمشهور ما

---

(1) الرسل والرسالات للأشقر، ص: 22.

(2) البخاري رقم 74.

(3) فتح الباري (6/ 434).

(4) المصدر نفسه (6/ 434).

(5) آراء ابن حجر الهيثمي الاعتقادية، ص: 419.

عليه الجمهور ـ يعني القول بنبوته ـ وشواهده من الآيات والأخبار كثيرة، وبمجموعها يكاد يحصل اليقين[1].

وسياق القصة يدل على نبوته من وجوه:

أحدهما: قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: 65].

والأظهر أن هذه الرحمة هي رحمة النبوة، وهذا العلم هو ما يوحي إليه من قبل الوحي.

الثاني: قول موسى له: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾ [الكهف: 66 - 70].

فلو كان غير نبي لم يكن معصوماً، ولم يكن لموسى وهو نبي عظيم، ورسول كريم، واجب العصمة ـ كبير رغبة ولا عظيم طلبة ـ في علم ولّى غير واجب العصمة، ولما عزم على الذهاب إليه، والتفتيش عليه، ولو أنه بمعنى حقبًا من الزمان، ثم لما اجتمع به وتواضع له، وعظمه واتبعه في صورة مستفيد منه، دلّ على أنه نبي مثله يوحى إليه كما يوحى إليه، وقد خص من العلوم اللدنية والأسرار النبوية بما لم يطلع الله عليه موسى الكليم.

الثالث: أن الخضر أقدم على قتل الغلام، وما ذاك إلا للوحي

(1) روح المعاني (15/ 320).

إليه من الملك العلام، وهذا دليل مستقل على نبوته، وبرهان ظاهر على عصمته[1]، لأن الولي لا يجوز له الإدام على قتل النفوس بمجرد ما يلقى في خلده، لأن خاطره ليس بواجب العصمة، إذ يجوز الخطأ عليه بالاتفاق، ولما أقدم الخضر على قتل ذلك الغلام الذي لم يبلغ الحلم علماً منه بأنه إذا بلغ يكفر ويحمل أبويه على الكفر لشدة محبتهما له، فيتابعانه عليه، ففي قتله مصلحة عظيمة تربو على بقاء مهجته صيانة لأبويه عن الوقوع في الكفر وعقوبته، دل ذلك على نبوته وأنه مؤيد من الله بعصمته[2].

الرابع: ومن أوضح ما يستدل به على نبوة الخضر قوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [الكهف: 82]. وينبغي اعتقاد كونه نبياً لئلا يتذرع بذلك أهل الباطل في دعواهم أن الولي أفضل من النبي حاشا وكلا[3]: أي يعني ما فعلته من تلقاء نفسي، بل أمرت به وأوحي إلي فيه[4].

وأما ما يتعلق بحياته وتعميره، فالقول الصحيح القول بوفاته وهو ما عليه المحققون من أهل العلم[5].

---

(1) الرسل والرسالات الأشقر، ص: 23.
(2) المصدر نفسه، ص: 23.
(3) منهج الحافظ ابن حجر العسقلاني (3/ 1240).
(4) الرسل والرسالات، ص: 24.
(5) المنار المنيف لابن القيم، ص: 72، فتح الباري (6/ 434، آراء ابن حجر الهيثمي الاعتقادية، ص: 419.

والأدلة من الكتاب والسنة تدل على قول من قال بوفاته وتؤيده.

ـ فمن الكتاب:

- قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: 34]. فالخضر إن كان بشراً فقد دخل في هذا العموم لا محالة، ولا يجوز تخصيصه منه إلا بدليل صحيح والأصل عدمه حتى يثبت، ولم يذكر ما فيه دليل على التخصيص عن معصوم يجب قبوله.

- وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران: 81].

قال ابن عباس: ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به وينصرنه[1].

فالخضر إن كان نبياً أو ولياً فقد دخل في هذا الميثاق، فلو كان حياً في زمن النبي ﷺ لكان أشرف أحواله أن يكون بين يديه يؤمن بما أنزل الله عليه وينصره أن يصل أحد من الأعداء إليه، ولم يثبت أن الخضر اجتمع مع النبي ﷺ فدل ذلك على موته[2].

ومن السنة: قوله ﷺ: «**أرأيتكم ليلتكم هذه، فإن على رأس**

(1) تفسير الطبري (3/ 330).
(2) البداية والنهاية (1/ 312).

مائة سنة لا يبقى على ظهر الأرض أحد»[1].

- وقوله ﷺ: «**تسألوني عن الساعة، وإنما علمها عند الله، وأقسم بالله ما على الأرض نفس منفوسة تأتي عليها مائة سنة**»[2].

قال ابن الجوزي: فهذه الأحاديث الصحاح تقطع دابر دعوى حياة الخضر[3].

4 - إخوة يوسف: هل هم الأسباط؟

اتفق أهل العلم على أن المراد بالأسباط في قوله تعالى: **﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾** [البقرة: 136].

- وقوله سبحانه: **﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾** [النساء: 163].

بأنهم أبناء يعقوب عليه السلام واختلفوا هل هم أبناؤه لصلبه أم لا[4]؟

فمن قال إنهم أبناؤه من ذريته، حكم بعدم نبوة إخوة يوسف ومن قال إنهم أبناؤه لصلبه حكم بنبوة إخوة يوسف، واختلف هؤلاء في الجواب عما وقع منهم.

---

(1) البخاري رقم 116، مسلم رقم 2537.
(2) مسلم رقم 2538.
(3) نقله عنه ابن كثير في البداية والنهاية (1/ 313).
(4) تفسير ابن كثير (1/ 200)، تفسير القرطبي (2/ 141)، تفسير الطبري (1/ 618).

فقال بعضهم: إن زلتهم قد غفرت بندمهم، واستغفار أبيهم لهم، ولا يستحيل في العقل زلة النبي[1]، ويرد بأن الأنبياء معصومون من الكبائر.

وقال آخرون: إنهم لم يكونوا أنبياء حين فعلهم بأخيهم يوسف ذلك، وإنما نبأهم الله بعد توبتهم[2]، ويرد بأن القول الصحيح أن الأنبياء معصومون قبل النبوة وبعدها[3].

والراجح - والله أعلم - القول بعدم نبوة إخوة يوسف عليه السلام، يقول ابن كثير: أعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف وظاهر هذا السياق يعني سياق قصتهم، يدل على خلاف ذلك.

ومن الناس من يزعم أنهم أوحى إليهم بعد ذلك، وفي هذا نظر ويحتاج مدعي ذلك إلى دليل، ولم يذكروا سوى قوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾ [البقرة: 136].

وهذا فيه احتمال لأن بطون بني إسرائيل يقال لهم الأسباط، كما يقال للعرب قبائل وللعجم شعوب، يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بني إسرائيل فذكرهم إجمالاً لأنهم كثيرون، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف، ولم يقل دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحي إليهم، والله أعلم[4].

(1) تفسير القرطبي (9/ 133).

(2) تفسير ابن عطية (3/ 220)، تفسير السعدي، ص: 363.

(3) آراء ابن حجر الهيثمي الاعتقادية، ص: 424.

(4) تفسير ابن كثير (2/ 514).